

دراسة تحليلية لسورة الذاريات

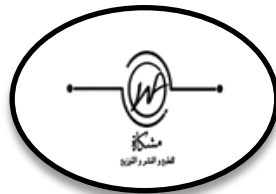
(من الآية ٥٤ إلى الآية ٦٠)

الشيخ

محمد السيد حسن محمد

أكاديمية تفسير للدراسات القرآنية

دار مشكاة
للطبع والنشر والتوزيع



عنوان الكتاب: دراسة تحليلية لسورة الذاريات من آية ٥٤

المؤلف: محمد السيد حسن محمد

التصنيف: دراسة قرآنية

تنسيق: منى الغريب

مراجعة: بمعرفة المؤلف

تصميم غلاف: شركة دوام

رقم الإيداع: ٢٠٢٤/١١٤١٤

ترقيم دولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٨٢٥-٠٩-١

=====
٣٤ شارع يحيى إبراهيم - محمد مظهر - الزمالك - القاهرة

ت/ ٠١١١٤٣٩٨٩٩٤ - ٠١٠١٤٤٤٤٦٤٨ - ٠١٠٠٢٢٦٩٥٤٧

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

هذا العمل وقف لله تعالى

ومن أراد طباعته ونشره مجاناً فله ذلك بعد إذن خطي من المؤلف

للتواصل مع الكاتب haledsayed398@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم
كلمة المشرف العام لمؤسسة السادة للفكر والثقافة

الحمد لله رب العالمين،،، ونصلي ونسلم على المبعوث رحمة للعالمين
سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين،،، وبعد،،،

لما كان للعلوم الشرعية المنضبطة الأهمية الكبرى في حياة كل مسلم،
وصار العلم الشرعي والحاجة إليه من أساسيات الحياة، وخاصة في هذا
الزمان الذي انتشرت فيه الفتن، والشبهات والمشككين في ثوابت الدين من
هنا وهناك، وحيث انتشر الجهل والبعد عن طلب العلم والتفقه في دين الله
تعالى، فكانت الحاجة للعلوم الشرعية ونشرها كالشمس للدنيا والصحة
للأبدان.

ومن أجل هذا حملت على عاتقي تأسيس هذه المؤسسة العلمية
وبمساعدة طيبة من بعض الإخوة المخلصين، والهدف منها نشر العلم
الشرعي الصحيح المنضبط المعتدل على منهج أهل السنة والجماعة، حتى
نقدم لأبناء الأمة الإسلامية مساهمة طيبة، ولو كانت بسيطة، عدة لهم
وتحصيناً أمام الشبهات والفتن بجميع أشكالها. ولقد تعمدنا السهولة
واليسر، حتى تكون متاحة لعموم المسلمين ولحبي دراسة العلوم الشرعية،
والتفقه في الدين.

و انطلاقاً من حديث رسول الله ﷺ عن سيدنا معاوية بن أبي سفيان ،
قال رسول الله : "مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ" . (صحيح البخاري)
وحديث ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : "جاء رجل إلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال : (يا رسول الله ! أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ فقال :
أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، سرور
تدخله على مسلم ، تكشف عنه كربة ، أو تقضي عنه ديناً ، أو تطرد عنه
جوعاً ، ولأن أمشي مع أخ في حاجة ، أحبُّ إلي من أن أعتكف في هذا
المسجد ، يعني مسجد المدينة شهراً...". (رواه الطبراني في الأوسط
والصغير)

ونسأله تعالى بجميل فضله وكرمه أن يجعله عملاً صالحاً ولوجهه
خالصاً ، وأن يكون زخراً لنا ولكل مسلم ، ونورا علي الصراط ، وأن يغفر لنا
ولوالدينا ولعموم المسلمين ... اللهم آمين يارب العالمين ،،
المشرف العام :

ناصر بن صالح بن حسين السادة

التعريف بالمؤسسة

مؤسسة دعوية لا علاقة لها بالسياسة منهجها الدعوة إلى الإسلام
بعقيدة ومنهج سلف الأمة.
جعلنا القرآن الكريم والسنة الصحيحة الثابتة عن النبي صلى الله
عليه وسلم طريقا وسبيلا ومنهجاً.
دعوتنا للناس بالحكمة والموعظة الحسنة واللين والرفق وعدم
العنف بكل أشكاله واتباع أيسر الطرق للوصول إلى ذلك،
نبتغي من وراء ذلك وجه الله تعالى.
(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ
وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) (الأنعام)
شعارنا قول الله تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)
متبعين قول رسولنا الأكرم (بلغوا عني ولو آية)
نريد العودة إلى الإسلام الصحيح والخير لجميع الدنيا فالمؤمن
كالغيث أينما حل نفع.
اللهم اجعل بلادنا آمنة مطمئنة رخاءً وسائر بلاد المسلمين. تقبل الله
منا ومنكم .
أهداف المؤسسة

- نشر العلم الشرعي بسهولة ويسر .
- طبع الأبحاث العلمية النافعة.
- ترجمة الكتب والأبحاث إلى لغات أجنبية.

- طباعة رسائل الماجستير والدكتوراة لغير القادرين علي طباعتها.
- نشر الإسلام الصحيح في بلاد غير عربية.
- الاهتمام بالجيل الصغير وتشجيعه علي الإنجاز وكتابة الأبحاث.
- الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة.
- تربية جيل من الدعوة والمخلصين لنشر الإسلام الصحيح.
- التصدي لحملة المشككين وناكري السنة النبوية.
- إعداد ندوات علمية نافعة.
- إنشاء مدارس للقرآن والسنة النبوية المباركة.

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

أما وقد أمرنا ديننا شكر المحسنين، وهذا حقهم، بل جزء من حقوقهم؛ أساتذة وشيوخ فضلاء، ننهل من علمهم؛ فحق لهم شكر، وواجب علي إسدائه.

والشكر موصول لشيوخننا في أكاديمية تفسير المباركة أن أتاحوا لنا فرصة محاولة الكتابة بحثًا وتدريبًا، وانتهاءً ببحث حول آيات كريمة من كتاب ربنا الرحمن، عشت في جوها الظليل، وتنسمت رحيقها العليل، فوجدت فيها الشفاء، وألفيت مع معاشيتها الدواء.

الإهداء

أهدي ثمرة هذا العمل المتواضع إلى والدي رحمهما الله تعالى؛ فقد رباني صغيراً، وألبيتها فرصة تقديمه وفاءً لبعض حقهما، ولجميل فضلهما.

كما أنه إهداء لزوجتي وأولادي الذين لطالما كانوا زادا بعونهم وفخرا بصبرهم، على عزوفي عنهم بعض الوقت أثناء مدارستي لهذا البحث إعداداً وتحريراً.

إقرار

وأقر أن هذا العمل هو نتاج قلبي وصباغة ذهني وإعمال فكري تنزهها بين جنبات حدائق كتاب ربي تعالى الغناء وبساتينها الفيحاء حتى ألفتني لها محبا وحتى وجدتني بها أحياء ومن دونها الموت المحقق والهلاك المبين لأن الله تعالى ربي قال ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ۚ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وما كان من نقل بينته، وما جاء من نسخ علمته، أمانة ودينا؛ ولما كانت البركة في إسناد كل فضل لمحققه، وإلحاق كل علم بذويه.

ملخص البحث

بينت في هذا البحث طريقة عرض القرآن الكريم للمقطع الأخير من سورة الذاريات، وألمحت من خلاله كيف كانت براعة القرآن في بيان أهمية العقيدة وربط ذلك بمسألة الرزق، وأنه بيده تعالى وحده، وليس لأحد من الخلق فيه شيء، وبينت علة خلق الله تعالى للثقلين، وكيف كان التكريم للإنسان أدعى لقيامه بمنهج الله تعالى في الأرض إعمالاً للدور المنوط به - خلقه - كما قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

وقمت بإبراز ما يتعرض له الدعاة العاملون من كد ونصب في سبيل قيامهم بالواجب المنوط بهم ديانة، وكيف أن التذكير بأمره تعالى لا ينافي أصل التولي عنم أعرض، ولم يرد إلا الحياة الدنيا، وبينت التحذير القرآني من تبعة تحمل المتبوعين لآثام من تبعهم دون أن ينقص ذلك من آثامهم شيئاً، ثم ختمت المقطع ببيان الويل وذكره في إشارة إلى ما

ينتظر هؤلاء الناكسين من أمره تعالى وسنته الماضية فيمن
تنكب طريقه وعهده، واستدبر سبيله.

ثم أنهيت البحث بخاتمة تضمنت نتائج لا يخلو بحث
من نتائجه فضلا، عن بحث قد تعلق بكتاب ربنا تعالى
الرحمن.

ولئن كانت سنته تعالى فينا - معاشر البشر - جارية
من نقص وتعديل وزيادة وتبديل فاعذر لكاثبه من ذلكم
باب إذ إنه فقط ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ ﴾ [يونس: ٦٤].

المقدمة

الحمد لله تعالى وافر النعم ورافع النقم وواهب القمم
لأولى النهى والعزائم والشيم ومسدل الهبات والعطايا لذوي
الدين والقيم أحمدته تعالى حمدا عم الآفاق وأشكره سبحانه
شكرا طال عنان السماء لما له تعالى من فضل عظيم ناسب
عطاءه الكريم، وأصلي وأسلم على عبده ورسوله ومصطفاه
محمد بن عبدالله رسول الله تعالى للأنام وللإنس وللجان،
فبلغ رسالة ربه أحسن تبليغ، وقام بالواجب المنوط به أفضل
قيام، ناسب أنه: أدبني ربي فأحس تأديبي وعلمني ربي
فأحسن تعليمي^(١).

ومنه تعلمنا كيف نواجه جاهلية عمياء وداهية دهياء
يعالجون الجاهلية علاجا، وكأنما هي ترياق لأدوائهم، ومن
حق أنهم يتجرعون وبالها، إذ قد تنكبوا وراءهم الكتاب،
ونسوا بصنيعهم يوم الحساب، أو كأنهم بلسان الحال قد

(١) الحديث لا يثبت عند كثير من أهل العلم لكن معناه صحيح

مالوا، وبلسان القول قد قالوا ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا
نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٧].

تمهيد

وهذه أطروحة جميلة تلبست جمالها من موضوعها،
وتنسمت رحيقها من فكرتها، ذلك أنها تدور حول مقطع من
كتاب الله، وارف الظلال، غزير الذخر، غني الدرر ؛ ذلك
لتضمنه - بحق - أصل الدين كله، إذ ولما كان الدين قائما
على إفراده تعالى بالعبادة، والتفرغ لذلك، وتضمن أعمال
العباد فيها من قوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي
وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٣]. فدل
على أن كل حياة امرئ لمولاه، وسائر أعماله له تعالى، ملتصقا
من ذلك هداه وتوفيقه ورضاه.

ثم إنني ألفت النص حاسما في غض طرف امرئ عن
مسألة رزق كانت سبب المماحكات، وسبيل التلكؤات، انشغالا
بها عن واجب الواجبات، وهو عبادته تعالى وحده بلا شريك،
وإسناد مسألة الأرزاق لربها، وإخلاص البرية النية وحسب
لخالقها.

ومن ثم كان هذا المقطع - بحق - فريدا- تفرد الكتاب كله- وليأخذن القرآن بلب امرئ منصف، وهو يجول بين جنبات آي قليل، قصير رسمه، إلى آفاق وأبعاد، وكأنما أقلام العالمين ليست بكافية، وكأنما أحبار الأولين والآخرين غير وافية، قياما بحق نص كريم، فضلا عن سائر الكتاب المبين. وهذا من كلامنا، وذلكم من حديثنا، فما بالنا بقول ربنا ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان: ٢٧].

وكذا قوله تعالى ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [الكهف: ١٠٩].

مشكلة البحث

ومن حيث إنه كلام حول كتاب ربنا سبحانه، فهنا تكمن التبعة، إذ ليس لكل امرئ أن يقول في كلامه تعالى ما لا يحتمله، فيتحمل إصرها، ويبوء بإثمها، وانضاف إلى ذلك- بحق- إشكال يدور حول تعلق هذه الآية الكريمة بدين الله تعالى كله.

وليس من بحث وقفت عليه قد تناولها من هذا الجانب؛ ومن هنا رأيت تناولها مستعينا بربي، محاولا كشفها؛ ذلك أن الرابط بين عبادته تعالى وقضية الرزق مسألة شائكة، من باب ما يحسبه الناس سعة لأرزاق قوم كافرين، وغاب أن الرزق واسع معناه، سعة أهميته والعقيدة معا؛ وذلك لأسباب منها:

١- فالأمن وحاجة البشرية له: ومعارك هنا وهناك، يكشف مدى اتساع قضية الأرزاق واتصالها بمسألة

العقيدة، يبينها قول عمر الفاروق فيما قد نسب إليه:
"حكمت فعدلت فأمنت فنمت يا عمر".

٢- وقضية الفشل الاجتماعي العالمي: في حسم
مشاكل الناس، وقضاياهم المتعددة، والوصول إلى حلول،
أعجزهم تناولها، على نحو مرض، ولما كان بعيدا عن منهج
الله، وما أفرزه ذلك من عيشها خبط عشواء، فلا هي
اهتدت، ولا هي لدين الله تعالى استسلمت، في حل أقضيتهم؛
ليعيشوا سعادة، عاشها الأولون. وسائلوا التاريخ عنا؟!

٣- وفي الجانب الاقتصادي: يرزح العالم كله تحت
ضغطه ويضرب الجميع منه بمطرقتة وها هي أمريكا
كأكبر اقتصاد عالمي تقع تحت وطأة دين خارجي مقداره
اثنان وعشرون تريليون دولار أمريكي! وذلك حسب
إحصائيات البنك الدولي لعام ٢٠١٧!

٤- وفي الجانب الجنائي: حدث ولا حرج! حيث تزداد
جرائم الاغتصاب والقتل والسرقات وغيرها، على مستوى
العالم كله، وربما نال أمريكا القسط الأكبر من هذا أيضا.

وغيره من جوانب الخلل كلها: فدل إذن على اتساع مفهوم الرزق. والقول بحصره في الجانب المعاشي وحده ابتسار لحقيقته، ونقصان من كينونته.

هذا تاريخنا

إذن عندما أقول: إن الرابط بين قضية الإيمان ومسألة الرزق عامل حاسم. فلست إذن مجافيا للحقيقة.

ذلك لأنه وعلى الوجه الآخر من المسألة، وحين وثق التاريخ أن معدلات النماء كانت أكبر ما يمكن في ظل القرون المفضلة الأولى، بعد استقرار أمر الدعوة، وكذلك انخفاض معدلات الهبوط، في المسائل الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والأمنية والجنائية وغيرها.

وذلكم يثبت ولاشك أهمية العقيدة والحفاظ عليها وربطها بقضية الرزق بمعناه الواسع؛ كيما يمكن للبشرية أن تسعد، وكيما يتسنى لها أن ترقى.

وينضاف إلى ذلكم هذا الغبار الذي شوش على الناس أمر عقيدتهم، وكذا انشغالهم فيما قد كفله لهم ربهم. ومنه لزم بيان ذلك للناس؛ كي يفهموه، ومن ثم يسلسون قيادهم لله تعالى ربهم الحق، وما عليهم بعدها!

أهداف البحث

ومنه أيضا استقيت الأهداف.

إذ إنه لما كانت الآيات بهذه المكانة العالية، والقمة السامقة؛ لزم أن أخوض غمارها؛ لأبين جواهرها، وأكشف جمالها، وأبين خبرها.

نحو قلت. وبلاغة سردت. وصرفا صرفت. وتفسيرا أبنت. ولغة شرحت. وبيانا أفصحت.

مهتديا بمن كان قبلي، من أولي علم، متضلعين، وذلكم رجيل كريم، استقوا علمهم من كتاب ربهم، وسنة نبيهم، وهدي صحبه الكرام، فسرت سيرتهم، بها متبركا، ولها محتديا، فهم القرون المفضلة، الذين فضلوا، بقوله صلى الله عليه وسلم: خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم - قال عمران: لا أدري: ذكر ثنتين أو ثلاثا بعد قرنه - ثم يجيء قوم، يندرون ولا يفون، ويخونون ولا يؤتمنون، ويشهدون ولا يستشهدون، ويظهر فيهم السمن^(١). كيما لا

(١) صحيح البخاري: ٦٦٩٥

يحيى صادق عن الجادة، وكيما يكون متبعا، وحاشاه كونه مبتدعا!

وأوجز الأهداف قائلا:

١- سبب خلق الله تعالى لعبيده كونه للعبادة والتوحيد وعدم الإشراك به تعالى أحدا.

٢- بيان كفالة الله تعالى لعبيده بمسألة الأرزاق.

٣- بيان سعة معنى الرزق وشموله وعدم اقتصره على ما قد يتبادر إلى الذهن كونه اقتصاديا وحسب.

٤- بيان سبب ما أحاط القوم كالسوار من ضحك وهم وحزن لما هموا قد تنكبوا كتاب الله تعالى وراء ظهورهم.

٥- الربط بين العبادة والرزق وكيف أنه تعالى يوسع رزقه بوافر معان.

٦- بيان سبب ما أحاط القوم كالسوار من ضحك وهم وحزن؛ لما هموا قد تنكبوا كتاب الله تعالى وراء ظهورهم.

٧- بيان أن السعادة شأنها عظيم وأنها في الحقيقة لا
تصيب إلا قوما قد وحدوا ربهم وإلا عبيدا قد أخلصوا
دينهم لله. وهي سعادة ممتدة امتداد الزمان في الدنيا، كما
وأنها ذخـر وعطاء ممدود في جنات الخلود.

أهمية البحث

ذلك أني رأيت للكتاب كله أهميته؛ شهادة عبد موحد.
وأفردت ذلكم ببيان لبيان!

فسهولة عقيدتنا ويسرها ضمنها ربنا تعالى الرحمن في
آية واحدة، ومن قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا
لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وهي سلاسة نبأت عن رب رحيم؛ إذ لم يكلفنا عناء
فهمها لتدخل جميعها طاقة فهم أحدنا، لا كمثل غيرها من
أديان استأثر أخبارها بفك طلاسمها حتى لبسوا على أتباعهم
دينهم فباؤوا بغضب على غضب ويحسبون أنه دين!.

وتنال محبة الله تعالى عندئذ - وعندئذ فقط - لا كما
عند القوم من نيل درجات عبوديتهم مقابل صكوك وأوهام!

ثم إن قضية رزق الخلائق كفاهم خالقهم عنها يوم أن
استأثر تعالى بها فخرائنه تعالى محض حق خالص له
ليعطي عطاءه لمؤمن كريم ولا يحرمه كافر لئيمًا؛ كرما
ولطفا منه سبحانه.

وهذا من فيض جوده وعطائه، إذ لم يسلمنا ربنا لسواه،
يعطي إن أعطى بمن، ويمنع حين يمنع بهوان!

وذكرت وكررت أن آيات كريمة كهكذا مقطع قد
لخصت الدين كله، واضح الدلالة، لا تكتنفه جهالة، يدعيها
جهول، أو صعوبة يزعمها شاب أو كهول!.

وألفيت النص غزير ا عطائه، وفير ا معناه، قصير ا
مبناه؛ لنفيد معاشر المبينين الكلام الجامع، والبيان المانع.

وبلاغته هادرة، وأداؤه آخذ بالعقول، جاذب للألباب،
حتى لكأنك تجدها كما قالت الجن ﴿... إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا
عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا
أَحَدًا * وَأنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾
[الجن: ١ - ٣].

فخلاصته عجب، ورسالته رشد. إليه هاديا، ومن
سببهما نبع إسلas القيادة له تعالى؛ وبه إيمان، كما قالوا
﴿... وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ٢].

ذلك أن أدعياء الإيمان قالوا بلسانهم آمنا، وبحالهم ومقالهم قالوا صباأنا.

وكان من سائغ الفطر السليمة والقلوب الطيبة أن تسلس قيادها لله تعالى إيماننا به إذ لا يهديهم ربهم إلا لنفعهم، ولا ينهاهم إلا عن ضرهم، لا كما حال آلهتهم المدعاة، يسومونهم العذاب سوما قناطر! إن هم حادوا عما رسم لهم من أساطير يبدونها ويخفون كثيرًا.

ومنه بانّت أهمية آيات هن خواتيم سورة الذاريات . ومن ثم أطلت أهمية بحث حولها لسبر غورها، وبيان فضلها.

حدود البحث

ويحد البحث بداية باقتصار تحرير القول والبيان
لآيات من سورة الذاريات هي عنوانه. ثم في تأكيد بيان
الهدف العام للمقطع من تعبيد الناس لربهم الحق، وربط
ذلك بمسائل المعاش والرزق، بحيث لا يشغل امرئ بها
نفسه؛ لأنه قد كُفّيها من لدنه تعالى.

عملي في هذا البحث

ولكي يبدو البحث حسنا جميلا وبيانا بديعا قمت بما

يلي:

- ١- تحليل الآية تحليلًا شاملاً أحاط بما رأيته
مناسبا ذكره إحاطة الأسورة بالمعصم.
- ٢- إعطاء الجانب التأويلي حقه وإظهاره، من
خلال بسط أقوال أهل العلم في الآية، على ما سبق ذكره،
وذلك ليكون لي سلف في هذا المجال؛ لشدة التبعة؛ كونه
متعلقاً بكتاب ربنا الرحمن سبحانه.

٣- بيان الفوائد وذكر الفرائد وتفصيل البدائع
مما تحتمله الآية للوصول بها إلى درجات التدقيق الأدبي
الجميل، ومن ثم وصولاً بها إلى غاية الإقناع.

٤- الإشارة إلى الجوانب اللغوية للكلمات الأساسية
في النص، والتي يدور بها وحولها المعنى، وتلكم التي
يعالجها المبنى؛ كيما تأتلف أجزاؤها، وتتناسق أبعاضها؛
لتبدو في حلة تسر الناظرين، وتأخذ بلباب المخاطبين.

٥- إظهار القرآن الكريم بما يجب أن يظهر من
معان سامقة مؤثرة، بحيث تكون عامل جذب للقوم،
فيرعونه حق رعايته، إذ إن ذلكم لا يكون بدون تقديمه
بذلك مظهر خلاب، آخذ بالألباب، لا إلى ثقافة لغوية، ولا
إلى مادة لمجالس أشبه بالندوات بعيداً عن إعماله، ونائياً
عن تدبره وزكائه.

٦- وليس يكون متألّقا بتيكم فضائل مالم يقدم
للناس كما وأنه لوحة بهية، أو مائدة شهية.

٧- عزوت كل نص من القرآن إلى سورته، وبيّنت
رقم آيته.

٨- كما وشرفت بذكر حديث المصطفى، والنبي
المجتبى صحيحا سنداً ومتناً. وأشار إلى ضعفه إذا كان
كذلك.

٩- ثم أسندت كل قول بشر إلى قائله، مشيراً إليه
ومنبها عليه.

١٠- قمت بنسخ الآيات، مضبوطة بالشكل، وكذا
الأحاديث لما لها من قدسية، وتنزيها عن لحن جلي، أو
آخر خفي.

مصادر البحث

وقد شهد ربي تعالى الرحمن أني خوفاً أن أقول في كلامه المنزه برأي، ووجلاً أن أنال ولو قسطاً من غضب، منه تعالى، لست له محتملاً؛ فضعف مثلي لا يحتمل؛ لأنه تعالى قال ﴿وَلَيْنَ مَسْتَهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٦].

إذ لا يكفي سلامة قصد دونما سلامة اتباع معه؛ فعمدت إلى كتب الأولين قارئاً دارساً متعلماً كاشفاً مدققاً؛ لأصل من وراء كلامهم إلى كلام! ومن خلف بابهم إلى علم أديب، وترتيب أريب، ناسب أهمية الكتاب، وعظيم القرآن؛ ذلك أن الأرض الطيبة تنبت كلاً وعشباً حسناً.

ومن نبت أولئك تنسمت، ومن عليل طيبهم استروحت، ومن جيد علمهم اغتنمت.

ولما كان من أمثال جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري، والتفسير الكبير لمؤلفه الكبير الإمام فخر الدين الرازي، والجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي،

وتفسير القرآن العظيم للحافظ العماد الإمام ابن كثير
الدمشقي، و في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب، وتفسير
التحرير والتنوير للشيخ الطاهر ابن عاشور ، و تفسير
الشيخ محمد متولي الشعراوي، وغيرهم.

وعلى ذلكم كله كان القرآن متقدما، وهدى النبي محمد
صلى الله عليه وآله وسلم له تاليا .

هذا وإذا اقتبست نسا من كتب التفسير المشار إليها
أنفا وذكرت التفسير، فإنني أقصد به النسخة الموجودة في
أيقونة التفاسير العظيمة.

وكذا آيات القرآن الحكيم، فإنني أذكر سورتها ورقم
آيتها فيها، بحيث يكون ذلك كافيا فيما إذا تكررت فأكتفي
بذكر ذلك مرة واحدة.

خطة البحث

وكانت خطة البحث متضمنة لمقدمة اشتملت على بيان أهميته وفائدته ودواعيه وبيان منهجه تتبعها ثمانية فصول أبين في الفصل الأول منها إطلالة عامة على سورة الذاريات، وبيان موضوعها.

ثم أفردت لكل آية فصلا مستقلا، يعالج أهدافها، ويكشف مرادها، لتتلوها خاتمة، أسرد فيها بعض النتائج التي توصلت إليها، ثم بيان لأهم مراجع الدراسة، ويتلوها فهرس الموضوعات.

الدراسات السابقة

وعلى حد علمي وقد بحثت فلم أعرثر على بحث يعالج هذا المقطع الكريم من سورة الذاريات من جانب كمثل الذي عالجنه. ومتن كونه ملخصا وموجزا لدين الله تعالى كله، مركزا على جانب العبودية رابطا بينها ومسألة الرزق من الله تعالى كفيلا به وحده.

بيد أن بحثاً منشوراً على الشبكة العنكبوتية موسوما
ب: سورة الذاريات: دراسة تحليلية للباحث حسام محمد
جمعة، وفي الواقع هو عبارة عن نظرة عامة حول السورة
إجمالاً ، ولم يتطرق فيه إلى الآيات محل الدراسة، رغم
أهميتها البالغة، ومنه كان عزمي أن أشير إليها بالبنان،
معتمداً على ربي تعالى الرحمن، مستمداً منه وحده المعونة في
البيان.

منهج البحث

واعتمدت في دراستي وإعدادي لهذا البحث على المنهج
التحليلي والمنهج الاستقرائي دائراً مع النص حيثما دار لغة
وبلاغة وبياناً وكشفاً عما يتضمنه من معانٍ وما يحمله من
تفسيرات لا تخرج عما اعتمدناه ومن منهج البحث الآنف
ذكره.

الفصل الأول

إطالة عامة على سورة الذاريات

بين يدي الآية

وإذا كان البيان تحليلًا للمقطع الأخير من سورة الذاريات، من قوله تعالى ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ [الذاريات: ٥٤]. إلى قوله تعالى ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٦٠]. فليس يعد ذلك مانعًا بل مؤازرا لإلقاء تصور عام حول هذه السورة المباركة كلها، وكما نستحضر العلائق وكما نعيش الانفساح أمام هكذا بيان السماء.

فالترايط بين سائر الكتاب المجيد أجزائه وسوره وآياته وكلماته علم أودعه الله تعالى كتابه وأبانه إحكاما وتفصيلا، ويسره للذكر والبيان مصلحا به اللسان وهاديا به الجنان. ويكأنه حديقة غناء تقطف منها الورود وتتنسّم منها الزهور.

ويكأنني بربي الرحمن سبحانه قد كفى الناس مؤنتهم
فلا ينشغلون، وضمن لهم كفايتهم لأنه قال ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ
بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر: ٣٦]. ومنه صارت حياتهم له عبادة
ودينا .

العلاقة بين بدء السورة وختامها

وكانما علاقة وشيجة بين مطلع السورة الكريمة
وختامها؛ ذلك أن الله القادر على خلق الرياح بأوصافها،
وإيجاد اللوايح بأسمائها، والسحب بأحمالها، والفلك
وجريانها، والملائكة وأعمالها، لقادر من ثم على إكفاء البشرية
ورزقها!

كيما تكون لربها عابدة ولبارئها موحدة؛ ذلك لأنه قال
﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:
٥٦]. ويثني ربنا سبحانه قسما بالسماء ذات الحبك؛ وكفى
دلالة بلفظ الحبك على إحكامه خلقه، وعلى إتقانه صنعه؛
دلالة عليه، وإرشادا إليه، وإظهارا للإعجاز، وبيانا لعظيم
قدرته، وجميل صنعته. ومن قوله تعالى ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي
أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]

وليس بياناً بالرياح وغيرها وصفا وحده، رغم كفاءته،
وإنما قسما بها وبغيرها؛ لعظمها؛ النابع من عظمته تعالى
كخالق، ليس أحد قادر على أن يخلق خلقا كخلقه سواه؛ لأنه
﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧]. ومنه كان
للقسم بها محله.

بلاغة المطلع

والسورة لأدائها دورها وليانها شأنها كانت لذلك ذات
مطلع يخدم موضوعها، كاف وحده دلالة على تعريف الناس
بربهم الحق؛ بدلالات ما سبق بعيدا عن معامل العلم لبيان
إعجاز القرآن. وكأنما النظر في كونه تعالى بهذا الهدى وحده
كان كافيا بذلك أيما كفاية.

والتعرض لها من هذا الجانب ليس مسلكا لينا جانبه،
بقدر ما تكتنفه من عثرات لا ينجو منها بشر، أوتي ما أوتي
من بيان، أو أشير إليه بالبنان؛ ذلك لأن الله منزلها له فصل
الخطاب، وله سائر البيان، كما ليس لأحدنا إلا بضاعته،
لكنها محاولات عساها أن تكلل بتوفيق؛ لنية كاتبها وحسب.

العلاقة سورة النازعات وسور القرآن الكريم

وسورة الذاريات من سور القرآن المجيد، وهي بهذا الوصف كافية لأن تكون واقعة موقعها منه دلالة خاصة كما سائر سور القرآن أيضا، وإنما كان ذلك لما ألمح فيها ويكأنها ملخص موجز للقرآن كله، بل و كأنني بها ملخصة للرسالة كلها لتبدو كأنما هي لوحة ندية عطاء وهبة من لدنه تعالى.

العلاقة بين اسم السورة وموضوعها

وتستمد السورة أهميتها من اسمها؛ ذلك أنها الذاريات، والذاريات هي الرياح، وهي تذرو التراب، ودل أيضا على أهمية الرياح، كونها لواقح، وعلى دورانها كصواعق، وعلى هبوبها ممطرات، وعلى إرسالها كقواصف، أو كأنها عواصف! مما هو معر وف من أنواعها أو موسوم من أصنافها.

فتعدد الأسماء دليل اهتمام. ومنه الرياح.

مكية السورة

وهي سورة مكية، تتسم بإيقاعات السور المكية؛ أداء لدورها في حسم مادة العقيدة، وتعبيد الناس لربهم سبحانه. وآياتها ستون آية، ونزلت بعد سورة الأحقاف.

المناسبة بين سورة الذاريات وسورة الأحقاف

ومنه كانت المناسبة قائمة بينها وبين سورة الأحقاف؛ ذلك أنه لما كانت سورة الأحقاف تولت بياناً بذكر البعث، والجزاء، والجنة، والنار، وما أعده الله تعالى لعبيده من جزاء أعمالهم، من خير فعلوه، أو إثم اقترفوه، فإن سورة الذاريات كان افتتاحها مؤذناً بوقوعه، وكان من ذلكم الإيذان بتصويره، وكأنما تراه العين أمامها؛ فيؤتي أكله، تأثيراً في الجوارح دافعا للعمل معا.

ومن مناسبتها كذلك ذكر جزائهم تفصيلاً، بعد إذ ذكروا إجمالاً في سورة الأحقاف.

سبب نزول السورة

ولم يرد سبب لنزولها إجمالاً . غير أنه قد ورد سبب
لنزول آيتين منها كما يلي:

أولاً: سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلْسَائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩]. قَالَ السُّيُوطِيُّ: قوله تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلْسَائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾، ((أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن عن محمد بن الحنفية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سرية فأصابوا وغنموا، فجاء قوم يشهد من الغنيمة فنزلت: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلْسَائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾^(١).

ثانياً: سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]. قَالَ السُّيُوطِيُّ: قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ [الذاريات: ٥٤]. و ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

(١) لباب النقول في أسباب النزول، السيوطي: ١٨٣

وعن علي قال: لما نزلت: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾، لم يبق منا أحد إلا أيقن بالهلكة، إذ أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يتولى عنا، فنزلت: ﴿وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فطابت أنفسنا^(١).

وأخرج ابن { فتول عنهم فما أنت بملوم } قال: ذكر لنا أنها لما نزلت اشتد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأوا أن الوحي قد انقطع وأن العذاب قد حضر فأنزل الله وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين^(٢).

مقاطع السورة

وتضمنت السورة أربعة مقاطع أساسية كلها تخدم الهدف العام للسورة، كما هدف القرآن كله، وهو تعبيد الناس لربهم الحق، ومدى أهمية ذلك في ربط الناس بدينهم وصراط الله تعالى المستقيم، ثم التوكل عليه تعالى وحده في طلب المعاش؛ كيما تكون النفس المسلمة عزيزة كريمة آبية.

(١) لباب النقول في أسباب النزول: ١٨٤

(٢) المرجع السابق: ١٨٤/١

والله تعالى في سبيل ذلكم إعزاز لعبده، كفاه مسألة
الرزق بقوله سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ
الْمَتِينِ﴾ [الذاريات: ٥٨].

وأشير إجمالاً، إلى الأربعة المقاطع، لبيان تلاحم أجزاء
السورة الواحدة، وائتلافها، كوحدة موضوعية؛ تأدية لدورها
في ربط الناس بدينهم الحق؛ لأنه كما قال تعالى ﴿أَفَلَا
يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ
اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

أولاً: دلالات من المقطع الأول

من الآية رقم ١ إلى الآية رقم ٨

إذ كان المقطع الأول حاسماً في القسم، بالرياح على
أصنافها، وباللواحق بأنواعها، والسحب كحاملات للأمطار
، إلى حيث شاء الله تعالى لها أن تنزل؛ لإحياء بلد ميت، بإذن
ربها، والفلك تجري في البحر بأمره، والملائكة العظام الشأن،
وما لكل من أداء مرسوم، له سلفاً من ربه تعالى، وهم
﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾
[النحل: ٥٠]. إبرازاً لقوته تعالى وعظيم قدرته وإحكام خلقه
وتدبير ملكوته سبحانه.

ثانياً: دلالات من المقطع الثاني

وفي المقطع الثاني يلتفت السياق إلى إبراز جزاء المتقين الأبرار، مقابلة الهالكين الفجار، قبل ذكر أوصافهم؛ تشويقاً لعملهم، وتحفيزاً لمآلهم، فهم الذين قال الله تعالى فيهم ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ [الذاريات ١٥-١٦].

ثم إنك رأيت ثم رأيت كيف جاء النظم مفصلاً لإحسانهم هكذا ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٧-١٩]. وهي صورة ترسم أمام النفوس الطيبة الرحيمة مشهد التأسي كما وإنها تجسم مظهر الاقتداء.

وذلك وكما أقول مقابلة صنف آخر نكد أثر الحياة الدنيا ولما كانت البخرة خير وأبقى ومن قوله تعالى ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الذاريات: ١٣ و ١٤].

ثالثاً: دلالات من المقطع الثالث

من الآية رقم ٢٠ إلى الآية رقم ٥٣

ويحقق المقطع الثالث مسألة الرزق وحسم مادتها في كلام خاطف سريع سهل يسير. وهي كذلك؛ لأنها من لدنه تعالى وحده. وكونها عنده تعالى وحده أيضاً! ومكفولة تماماً لطمأنة النفوس إلى الا رتكان إليه تعالى وحده، لا إلى أحد ممن خلق؛ لأنهم في حس المسلم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا حتى يمكنهم امتلاك شيء من ذلك لغيرهم!

لكنه وعلى طريقة القرآن المجيد يفعل ذلكم؛ بتوطئة نفيها في أعمالنا أن قدم بتحفيز، وأن مهد بتوطين النفوس؛ للقبول والإذعان؛ لأنه تعالى قال ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢٢].

وعلى أن هذا كله وعلى طريقة القرآن المجيد لم يكن خاليا عن ذكر القصص؛ لاستخلاص العبر، ومن إشارات لطيفة إلى شيء، ولو خاطفا، من خبرهم؛ ولأن هذا أدعي

لشذ الههم، واستنفار الطاقات، نحو الهدى؛ خوفا من مآل
المكذبين، وطمعا في اللحاق بركب الفائزين.

وانظر إلى أمثلة، ومن قوله تعالى ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ
ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ۖ
قَالَ سَلَامٌ ۖ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ ۖ فَجَاءَ بِعَجَلٍ
سَمِينَ * فَقَرَّبَهُ ۖ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ
مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا لَا تَحَفْ ۖ وَبَشِّرْهُ بِعِلْمٍ عَلِيمٍ *
فَأَقْبَلَتْ أَمْرَاتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ
عَقِيمٌ * قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ
* قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ
قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ *
مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ * فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ *
وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * وَفِي
مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * فَتَوَلَّىٰ
بِرُكْنِهِ ۖ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۖ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ
فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ۖ * وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ

الرَّيْحِ الْعَقِيمِ * مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ
كَالْزَمِيمِ * وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ
* فَفَعَتُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصُّعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ
* فَمَا أَسْتَطْعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ * وَقَوْمَ
نُوحٍ مِّنْ قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ * وَالسَّمَاءَ
بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧ - ٢٤﴾ [الذاريات: ٢٤ - ٤٧].

وهكذا يعرض القرآن الكريم إجمالاً لسيرة ركب كريم
من الأنبياء الكرام - عليهم السلام - مع أقوامهم، وما لاقوه
منهم، في سلوك نكد، باعث على الاشتمزاز؛ لأنهم ومن مثل
ما حكى القرآن العظيم عنهم ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى
النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ [غافر: ٤١].

هكذا في حسابات عجيبة من أولاء قوم راح بهم خيالهم
السمح إلى تمجيد صنيعهم في مقابلة أفعال الله تعالى الخالق
الواحد المدبر، ومنه كان القوم ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ *
فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ * بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُوتَىٰ
صُحُفًا مُّنشَرَةً * ٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿
[المدر: ٥٠-٥٣].

رابعاً: دلالات من المقطع الرابع

وأخيراً في المقطع الرابع وحين يعرض القرآن الكريم إجمالاً لهكذا مسألة العقيدة وربطها أو ما ترتبط به ومن مسألة الأرزاق ويكون الأمر كان لافتاً حاسماً ومن كون أن العبيد وأن لم يكن عليهم سوى تعبید أنفسهم لربهم الحق ومن ثم جعل الله تعالى الرزق منه لهم فضفاضاً رقيقاً ومن سبب معه أيضاً.

وهكذا في منظومة تتلوها أختها ومن سورة كهذا سورة لذاريات !

ويكأنك لتعجب عجباً آخر ضافياً، وحين تطالع كل سورة من سور هذا القرآن المجيد، ولما كانت ومن كمثال أختها، تعالج مسألة ربط العبيد برب العبيد سبحانه، وإن من زاوية غير، وإن من جانب غير؛ تناغماً، وتقلباً، وإثارة للوجدان، والأفهام، والأحاسيس، والمشاعر أيضاً.

وتلك كانت توطئة حول سورة الذاريات لزم بيانها؛ كيما يمكننا العيش مع القرآن الكريم، عباراته، وإيحاءاته،

وبياناته، ومؤثراته، وإيضاحاته، وتصوراتهِ وإيقاعاته،
وجرسه.

وبغير ذكر لشيء من ذلك، لا يمكن لأحد ادعاء لفهمه،
أو زعم لفقهه.

وبعد هذه التوطئة، وذلك تمهيد، يصل بنا النص
القرآني المجيد، إلى ما وكأنما السورة قد زينت من أجله، أو
أنزلت من شأنه، وكأنما قد هيئت النفوس لتلقيه، طواعية
واختياراً؛ لأنه ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].
ليحط بنا المقام رحاله، إلى تبيانه، وهو المراد بعد ذلكم حشد،
من لدنه تعالى؛ لتنهض البشرية إلى ركب الفالحين.

وإلى المقصود، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

الفصل الثاني

تفسير الآية الرابعة والخمسون من سورة الذاريات

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ [الذاريات: ٥٤]

أنف ذكر طرف من أسباب النزول.

ولعلنا نعيده؛ ولعلاقته الأصلية بالآية التي نحن بين يديها الآن.

سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَذَكَّرْ فَإِنَّ الذُّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

قال السيوطي: قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ [الذاريات: ٥٤]. و ﴿وَذَكَّرْ فَإِنَّ الذُّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

وعن علي قال: لما نزلت ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾، لم يبق منا أحد إلا أيقن بالهلكة، إذ أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يتولى عنا، فنزلت ﴿وَذَكَّرْ فَإِنَّ الذُّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فطابت أنفسنا.

وأخرج ابن { فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ } قال: ذكر
لنا أنها لما نزلت اشتد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه
وسلم ورأوا أن الوحي قد انقطع وأن العذاب قد حضر فأنزل
الله وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين.

ومادة: ملوم: مفرد: جاءت على صيغة اسم مفعول من
الفعل: لام. أي أنه: يأتي بما يلام أو يوبخ عليه، مستحق
للم، فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ أي: مستحق للوم^(١).

المعنى العام للآية

وبمقتضى منطوق الآية يأمر تعالى عبده ورسوله
محمدًا صلى الله عليه وسلم بالإعراض عن المشركين، بعد أن
اختاروا الكفر على الإيمان، وألا يلح في جدالهم، أكثر مما
ينبغي، بعد خيارهم هذا، ولا لوم عليه، بعد إذ دعاهم، ولا
يؤدي به الحرص عليهم أن يجادلهم أكثر مما ينبغي. ومنه

(١) معجم اللغة العربية المعاصرة.

قوله تعالى ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾
[الشعراء: ٣].

حَوَّلَ الْخِطَابُ مِنْ تَوَجُّيهِهِ إِلَى. الشعراء: 3.]

معنى التولي: والتولي عنهم أي الإعراض كما قال تعالى
﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩].

والعرب تستعمل التولي في لغتها بمعناه هذا يقال: ولي
فلان عن فلان إذا أعرض عنه وتركه؛ كما قال حصين بن
ضمضم:

أما بنو عيس فإن هجينهم ولي فوارسه وأقلت أعو را.

بلاغة اختيار اللفظ تولى دون أعرض! لكن مجيء
النص بلفظ تول دون أعرض له سره ودلالاته على طريقة
القرآن في اختيار كل حرف في محله وفي اجتناء كل لفظ في
موضعه.

بلاغة مجيء الفعل تول بصيغة الأمر: ومجيء النص
بفعل الأمر: تول، قاطع في الدلالة على شدة الإعراض عن أهل

الشرك، وألا يكلف الإنسان نفسه عنقا في مواجهتهم، بعد أن قام بدعوتهم على وجه يرضاه الله تعالى، بالحكمة والموعظة الحسنة، سالكا سبيل الخائف الوجل عليهم، ألا يؤمنوا.

وتلك عادة المصلحين ودأب الدعاة الربانيين تراهم أبدا على قومهم مشفقين.

بلاغة فاء العاقبة: ومجيء الفاء في: فتول؛ الدالة على التعقيب، يشي بترتيب الإعراض حال قيام الداعية بواجبه، وألا يكلف نفسه وقتا وجهدا أمام المعاندين؛ ليصرف كل ذلك في مواجهة قوم آخرين؛ لعل حالهم أقرب.

وهو توجيه للدعاة للنظر في حال المدعو. وهي مسألة تقديرية لهم. أمانة في أعناقهم، وحينما كان الأصل تجردهم من هوى، وألا يتلبسوا من مكيدة.

بلاغة حذف الفاعل: وحذف فاعل الفعل تولى وجوبا؛ للعلم به، ضرورة، وتنويها بشأنه ديانة.

وهو توجيه رباني كريم تكريم للدعاة العاملين؛ لقاء
إخلاصهم.

وهو دين يدين به الأتباع؛ يتعبدون ربهم به.

وهو منوط بحدود التكريم، فلا إفراط ولا تفريط،
فالأمة أمة وسط، ومن قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً
وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. وفي كل شأن.

بلاغة التعبير بالجملة الفعلية: وبيان حقيقة التولي
بالجملة الفعلية ﴿فَتَوَلَّ﴾، مؤذن بالاستمرار، فحيثما وجد
التولي والمتولون، كان الإعراض عنهم تبعا لمسلك انتهجوه؛
إعازا للديانة، وأتباعها. فإنما يرجو الدعاة إخراج الناس من
الظلمات إلى النور محتسبين ما ينالهم من أذى القوم.

المسلم أستاذ الجيل: والمسلم عزيز ، ويستمد عزته من
عزة من يدعو إليه رب رحيم. وما يدعو إليه من كتاب كريم.
فإنه وإن دعا إلى الله تعالى فهو يشعر أثناء قيامه بهذا

الواجب بأنه أستاذ! في تواضع حميد، وخلق حسن، وأدب،
ولين جانب، وحرص شديد. فلا يعرفه كبر ولا يعتريه غمط.

بيد أن التولي والإعراض ليس يكون تبكيثا للقوم بقدر
ما هو في حق الرسول والدعاة من بعده توجيهها ربانيا من
قوله تعالى ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ
يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦]. في شفقة داعية،
ولسة حانية. يجدها كل قائم بالدعوة، مبتغ للخير، ألا يكونوا
مؤمنين؛ قياما بداعي الحرص والشفقة على الناس.

تول بغير ترك! وليس يفهم من الأمر بالتولي عنهم
تركهم؛ فإن فيهم من يعلم من حاله قبول، ومن مقاله
انصياع. ومثل ذلكم نوع لا يتولى عنه، بل يحاط بالرعاية،
ويؤثر بالعناية.

وسبق أن ذكرت أن ذلك منوط بالواقع، وتقدير الدعاة
العاملين له؛ كيما لا يترك قاصيا، وإنما يأكل الذئب من الغنم
القاصية.

وليس التولي نكاية: قدر أنه ربما كان علاجاً وترياقاً؛
لعلهم ينتهون، أو يحدث لهم ذكرى، مع ما فيه من شفقة
الدعاة العاملين على قومهم خاصة.

وقد ورد أنه صلى الله عليه وآله وسلم قد أصابه حزن
شفقة على قومه؛ لما نزلت هذه الآية، رغم تضيقهم، و رغم
عنادهم.

لكن هكذا حال الدعاة العاملين، يشفقون، ويصبرون،
عسى القوم أن يؤوبوا.

وشأن الدعاة العاملين مع قومهم عظيم، يرمون
بالحجر، فينتظرون أطيّب الثمر! فيغشون قومهم في
الأسواق، ويبادرونهم في المجالس؛ حسبة لربهم، وشفقة
عليهم؛ لأنه: لا يؤمن أحدكم، حتى يحب لأخيه ما يحب
لنفسه^(١).

وتلك قمم سامقة؛ خلعت الهوى، وتزينت بالإيثار!

(١) صحيح البخاري: ١٣

حاول مجددا! ولا يظن أن الدعوة مرة أو مرتين كافية؛
لداعية التولي والإعراض، فالمبالغة في بذل المجهود، هي ديدن
الداعية المعهود؛ كيما لا يجد إبليس له سبيلا، ليفتن، وكيما لا
يتخلل إليه الوهن ليركن. وما هذه بخلق للمخلصين. وكم من
سبيل سلكه سيد المرسلين دعوة لقومه!

القرآن يعلي مقام النبي صلى الله عليه وسلم: ونفي
اللوم عنه صلى الله عليه وآله وسلم، بنص قرآني؛ ليشي بعظم
المقام، وشرف المكانة، له، عند ربه سبحانه. ذلك لأنه قال
تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا
* وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥ و
٤٦]. فتلك صفات ثناء وإشادة تنبئ بقدره صلى الله عليه
وسلم.

بلاغة التعبير بالجملة الإسمية: ومجيء نفي اللوم عنه
صلى الله عليه وآله وسلم علاوة على كونه بنص قرآني مجيد،
مع ما فيه من إعلاء الشأن، وسمو المقام، تؤكد الجملة
الاسمية؛ الموجبة تضمن نفي اللوم عنه، وثباته، ذلك أن عمر
الدعوات طويل طول الزمان واسع سعة كون الله.

بلاغة ذكر المسند إليه (المبتدأ) : وذكر المسند إليه
(أنت)، أضيف على التعبير حسنه، من حيث ما للرسول صلى
الله عليه وآله وسلم من اهتمام رباني به، بلغ شأوه، نلمسه
من إحياءات ذكره.

بلاغة التعبير بالضمير المنفصل (أنت) : والتنويه
بذلكم الضمير المنفصل؛ دلالة أخرى على التقرير وما لشانه
من اهتمام وما يشيعه في جو الآية من تخصيص يضيف إلى
الرسول مكانة وقيمة بالغة.

بل إنك لتلمس شارات الإحياء بمحبة الله تعالى لرسوله
صلى الله عليه وآله وسلم من ذكره مرتين: مرة بالضمير
المستتر وجوبا (أنت)، ومرة بالضمير البارز المنفصل (أنت)،
في آية بلغت من القصر مبلغا، ومن حيث كونها مؤلفة لفظا
من أربع كلمات؛ ليصير ذكره على النصف من عدد الألفاظ!
وهل وحدة الضمير (أنت) في الحالتين مقصودة!

دلالة التعبير بالجملة الفعلية: وكما بدأت الآية بالجملة
الفعلية (فَتَوَلَّ)؛ دلالة على استمرار حدث التولي؛ بوجود

حدث الإعراض، فإنها ختمت بجملة إسمية (فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ)، دلالة على الثبات، وإذ كلما أعرضوا وتوليت! فإن ثبات نفى اللوم عنك قائم إذن.

وهو تقرير منه تعالى ألا ييأس داعية، حين وقف ذلكم موقفا في مواجهة أهل العناد.

بلاغة التعبير بحرف الجر الباء: ومن جميل ما يلحظ من السياق تأكيدا لنفي اللوم عنه صلى الله عليه وآله وسلم؛ مجيء حرف الباء في الخبر المسند (بمَلُومٍ)، وكأنما أسبغ ذلك التأكيد على الجو العام للآية طمأنينة وشعورا بالارتياح، مما قد علمه الله تعالى عنه تأثرا بعناد القوم، وشفقته عليهم، وغشيانه إياهم، في كل محفل، وهذا درس مؤثر للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وللدعاة من بعده.

جمع بين آيتين

بيد أن تسأولا ربما جال في الخواطر، فأفردت له قولاً:
إذ كيف يمكن الجمع بين قوله تعالى ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا
أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ (وقوله تعالى ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾
[الصافات: ١٧٤].

وأقول: إن التولي ليس مطلقاً في سورة الذاريات، كما
قد يتبادر إلى الذهن؛ بدليل مجيء الأمر بالتذكرة في
الآية التالية مباشرة؛ كما في قوله تعالى ﴿وَذَكِّرْ فَإِنْ
الذِّكْرُ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]. على ما سيأتي
بيانه إن شاء الله تعالى.

هذا علاوة على ذكر أقوال ثلاثة لأهل العلم في آية
الصافات من أن المقصود بالحين هو الموت أو يوم بدر أو هو
يوم القيامة. ولا تناقض إذن والحمد لله تعالى.

وتصور الفعل الأمر على حقيقة كونه أمر ؛ ليوحي بشدته، ومؤذن بصرامته، بحيث لا يبقى لأحد معه مباحة، ولا ليترك لأحد مجالا من نقاش!

ومن عجيب أنه قد ورد مكررا في مسافة قصيرة أخرى، كما في سورة الصافات، حيث قال تعالى ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴾ [الصافات: ١٧٤]. ثم بعدها بثلاث آيات يرد قوله تعالى ﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴾ [الصافات: ١٧٨]. ليعطي مادة الحسم، وعدم قضاء الأوقات سدى، في مواجهة الناكسين، وتضييع فرص، ربما كان أدعى توجيهها إلى قوم آخرين؛ تأليفا لقلوبهم، وضمهم إلى صفوف الموحدين، كما قال الله تعالى ﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ * فَأَن ت لَهُ تَصَدَّىٰ * ٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكَّىٰ * وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ * وَهُوَ يَخْشَىٰ * فَأَن ت عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ [عبس: ٥ - ١٠].

وهو درس للدعاة العاملين في حقول الدعوات، ألا يضيعوا أوقاتهم سدى في مناظرة من قد ﴿ حَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ٧].

الفصل الثالث

تفسير الآية الخامسة والخمسون من سورة الذاريات

﴿ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات:

[٥٥]

وجوب التذكرة: وقوله تعالى ﴿ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥]. مؤذن بوجوب التذكرة، وأن التولي عنهم لإعراضهم، إنما هو طارئ، لا حال ثابت. وإلا فإن إخراج الناس من الظلمات إلى النور، هو غرض الأنبياء، وإرادة رب السماء. وهو ما أوحى ربنا إليه بقوله تعالى ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ [المدثر: ٧]. وما كان صبراً إلا لشدة ما جوبه به من عنت، وما واجه من إعراض.

ولرب سائل أن يسأل: لم تنسحب التذكرة على الكافة، وربنا سبحانه حصرها في المؤمنين؟!

ويجيب القرآن الكريم ﴿ وَذَكَرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾

[الأنعام: ٧٠]. وأيضا قوله تعالى ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ * إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية ٢١-٢٦]. فهي لكل مخاطب. وكل به كذلك.

قال أهل التفسير: وذكر أي بالعظة فإن العظة تنفع المؤمنين.

قال قتادة: وذكر بالقرآن فإن الذكرى به تنفع المؤمنين.

والتذكير بالقرآن بالغ أثره؛ لأنه ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ * إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ وقوله تعالى أيضا ﴿وَلَوْ أَنْ قُرْآنًا سُرِرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُتِبَ بِهِ الْمَوْتَى ۖ بَلِ اللَّهُ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۖ أَفَلَمْ يَنَاسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا ۖ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ

وَعَدُ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ [الرعد: ٣١]. ولأنه ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]

وقيل: ذكرهم بالعقوبة وأيام الله. وخص المؤمنين؛ لأنهم المنتفعون بها^(١).

وقال مجاهد: في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ [الذاريات: ٥٤]. فأعرض عنهم فقليل له: ﴿وَذَكَّرُ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]. فوعظهم^(٢).

وكل ذلكم دال على دخول الكافة في التذكير. وهو من دلائل رحمته وآيات رأفته تعالى.

(١) فتح القدير، الشوكاني: ج ٥ / ٩٢

(٢) تفسير الطبري، عند هذه الآية.

وتبدو أهمية التذكرة باعتبارها أمراً من تعالى لرسوله
صلى الله عليه وآله وسلم والتابعين من بعده، وباعتبارها
وظيفة حسبية في مقامها الأول.

وهو ما يعطيها زخمها ويضفي عليها عزتها ويوجب
احترامها؛ إذ ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي
الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣].

وتلك شارة أخرى تضاف إلى رصيد العزة للمذكرين،
وهي زاد المصلحين على مر الزمان.

ويوم تقوم الدعوة على هكذا أساس متين؛ فضمان
سيرها، وعدم إعتار طريقها، ودوام قيامها، وبقاؤها، لقائم في
الأفق قيام شمس، ولثابت ثبات قمره، ومادام الزمان قائماً.

وتلك شيمة أصحاب الدعوات، يذكرون محتسبين،
ويدعون الى ربهم وأجرهم منه فقط ورضاه مبتغين.

ودعوة هذا عمادها، فنتاجها الفلاح، وحصادها
الإصلاح، وقوامها عون ربها الفتاح.

وعلاقة كمتانة الجبال بين التولي عنهم والتذكرة لهم! إذ
يشيع التولي في كون الله الفسيح عزة للداعية، وشعور
بالعلو والسؤدد، وحاشاه أن يتلبس بكبر أو تعال.

فقط عزة وأنفة؛ يفرضها ما يدعو إليه، في الوقت الذي
يهدئ من هذه العزة حنوه عليهم، وخوفه عليهم، وشفقته
بهم، فهو يذكرهم ليلاً ونهاراً وخفية وجهاراً .

وزاده في ذلكم كله ما يرجوه من ربه، وما أعده له ،
من فلاح أخ رآه، ومن أمن دنياه، فلست بواجد أبداً أحداً
أصدق قولا من داع إلى الحق، ولست بواجد أحداً قانعا
قناعته، ولا عافا عفته.

ذلك أنه بربه قانع، وبمولاه سبحانه راض، وفيهما
السلامة، ومن دونهما السامة، والله الموفق لمراضيه.

أداء قرآني بليغ: وجو الإيقاع الفريد والنغم التليد
والجرس المؤثر، وذلكم الأداء الذي يبلغ الأذان، ويمتع الأبدان،
ويريح الجنان، وكأنه حديقة غناء منحت كل عطاء، فصارت
ملجأً للشاربين، وصبغاً للآكلين، ومأوى للآمنين، وتأخذ

القلوب أخذاً، وتستجيش الأبواب؛ لتسبح قانتة في كون ربها سبحانه.

هذا الجرس وذلك النغم القرآني، الخاص بالقرآن وحده، ألحظه من دقة الأداء، وحسن الصياغة، وإعجاز البيان في مدلولات كبيرة، بجمل قصيرة، ومن مثل مانحن فيه وبصده.

وهو ما يجعل المرء واقفاً مخبتاً قانتاً خاشعاً لمولاه، بينما يقرؤها، بذلكم الإحساس، وهذا الشعور المرفف، وهذه الرقة المتنسمة من معانيه الخالدة.

ويروح المرء ويجئ مرة تتلوها مرة وهو يرتل ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾؛ ليعيش إطباقاً لشفتيه، حين يقرأ (عنهم)، ونفس الإطباق حين يتلو (بملوم)؛ دلالة على تأثر بالغ، ومزاج كسير؛ من إعراض قوم، أحب لهم الهدى فتركوه! وأراد لهم الخير فعادوه! وآثر لهم الهدى فناوؤه! وأخبر لهم السلامة فحاربوه!

عمل النقيض: وذات الشعور ونفس الإحساس في رحمة رب كريم بخلقه، هو ذلكم الإصرار على التذكير؛ لخيرهم

وحدهم، وإذ ليس لخالقهم فيه من شيء أبداً؛ لأن غناه مطلق، ولأن فقرهم مطلق كذلك! وهما نقيضان؛ يستدعيان استجاشة الضمائر؛ لتؤمن بربها؛ لخير أرادته بها، ولرشد أسداه لها. وقال الله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

إن هو إلا نفعهم، وإن هو إلا شعورهم بصلاح بالهم، وراحة ضمائرهم، حين يقومون لله تعالى خالقهم بحقه، من العبادة، وبندائه من التذكرة، ذلك أن الشارع تعالى تشوف إلى استذكارهم، لما عرفهم نفعهم، وبين لهم فضل تذكيرهم، فإنه إليهم وحسب، ولا شيء من ذلك إلى الله الخالق الغني، وتلك شامة تفرد بها مولانا الله تعالى.

ذلك أن العبيد كل العبيد لا يقدمون شيئاً إلا ابتغاء نفعهم هم! ولا يدبرون عن شيء إلا لحاجة كسببهم هم! ومهما علوا وإن سفلوا! لتبقى لهم بذلك النقيصة دالة على بشريتهم، وكاشفة عن حقيقتهم، من الفقر إلى الله تعالى، ومن الحاجة إلى ما وراء عطائهم من كسب ومربح، ولا محيد لهم عن ذلك! ولا يستطيعون!

حكم التذكير: والتذكرة عظة؛ كما سبق.

وكونها كذلك دال على وجوب القيام بها وعظا!

صفة التذكرة: وما هي بآتية أكلها مالم تكن هكذا،
وعظا لينا شفيقا، وقولا حليما رقيقا، آخذا بتلايبب القلوب،
إلى الله القائل ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَحْشَى﴾
[طه: ٤٤].

والدعاة بذلكم نهج مخاطبون. وبذلكم وعظ موجهون.
إن هم أرادوا لقولهم اتباعا، ولنصحهم انقيادا.

ودل على كون التذكرة عظة، قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ
يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ
فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣].

فالتذكرة إذن عظة! ومصاحبة لقول بليغ. ذلك أن
القول البليغ لمنتج أثرا، ولحول قلبا.

والله تعالى يقول أيضا ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾
[البقرة: ٨٣].

وبكونها كذلك لتأطر القلوب على الحق، وقد أتت على وجهها، من إشفاق قول، ومن وجل قلب، ومن رحمة فؤاد، ومن إرفاق، ونصح سديد.

وعد ووعد: بيد أن التذكرة ولما كان منها هو هكذا مجيئها على نحو متسم بسمتي الوعد والوعيد معاً، وزحिन خلوها من احدهما وغنما افتقدت أهم ثمارها وأولى خصائصها ومن إتيانها اكلها!

ألم تر كيف كان من حديث العرياض بن سارية وحين وجلت فلوبهم وذرفت عيونهم ومن تذكرة نبهم محمد صلى الله عليه وسلم.

فعن عبدالرحمن بن عمرو السلمي وحجر بن حجر: أتينا العرياض بن سارية، وهو ممن نزل فيه ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه فسلمنا، وقلنا : أتيناك ؛ زائرين، وعائدين، ومقتبسين . فقال العرياض: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، ثم أقبل علينا، فوعظنا موعظة بليغة، ذرفت منها

العيون، ووجلّت منها القلوب . فقال قائل : يا رسول الله ! كأن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا ؟ فقال : أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبدا حبشيا، فإنه من يعبش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة^(١).

وبه دل على كونها ومن وجوب سياجها بسياسي الوعد والوعيد معا.

وألمح في قوله تعالى ﴿ وَذَكَّرْ ﴾ صفة الأمر الجازم، وصفة الوجوب الحازم، لرسوله والتابعين من بعده، بحيث ليس لهم إلا الانقياد، وما أمامهم غير التسليم؛ طاعة لمولاهم ورضاه معا.

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ٤٦٠٧

وذلك دين به إليه يدينون، وطريقة بها له يتعبدون، وهو نهج الصالحين في كل أعمالهم، وسبيل المتقين سائر أحوالهم، ودأب السالكين أقوالهم.

على قدر الوسع والطاقة: والتذكرة الموسومة بوسم العظة كسبب للانقياد محدودة بحد القدرة، ومنوطة بمناط الاستطاعة؛ قال الله ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۖ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَاكُم عَنْهُ ۖ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨].

وتلك رحمة الله الواسعة بعباده، لأنه تعالى إنما ألزم ما ألزم شرط بذل الوسع وحسب، وما كان عنه خارجا فالمرء منه في حل. وعلى قدر الوسع يكون التكليف. لأنه تعالى قال ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾ وقوله تعالى أيضا أيضا ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: 286].

وليست تكون موعظة بليغة إلا وقد وجلت منها القلوب
وذرفت منها العيون لتبدو وكأنها موعظة مودع، وحينئذ -
وحينئذ فقط - يتنبه العاملون لما عليه عملهم من وطأة، وما
تخلله من شدة، لا تصعب على متعبد، ولا تعسر على سالك،
لكنها التبعة فليعد لها عدتها، ليحمل القوم، أو هكذا يحاول،
على منهجه، ويسلك بهم طريقه.

وحيثما توافرت على التذكرة تيكم البنود بليغة - وجلت
منها القلوب - ذرفت منها العيون - كأنها موعظة مودع،
هناك ترتجى ثمارها، بعد إذ خيض غمارها، وكانت بتقواه
تعالى موصية، وبشرعه مؤذنة، وبدينه كله أمرة، لكنها بعد لا
تعرف مدهانة، ولا يعرفها نفاق، ناصعة في بياض، خالصة
في نقاء، فمن كل اكتسبت صفاءها.

التأثير بالقصص: وذكر قصص الأولين، وممالك
الغابرين، أوقع للنفوس، وأدعي للتذكر، ومنه لزم الداعية بها
علما، ووجب عليه لها إحاطة؛ كما قال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ

النُّورِ وَذَكَرَهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ۖ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ
شَكُورٍ ﴿٥﴾ [إبراهيم: ٥].

وفيه إشعار للنفوس بدين الله عليها، ونعم له تترى عليهم.

وقال الله تعالى ﴿ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ
خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ۖ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ
الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ [يونس: ١٠٢]. فتلك والله لآيات قوارع، وتلك
لعمرو الله لبيئات صواعق، لمن كان له قلب، أو ألقى السمع
وهو شهيد. تحمل النذارة بكل معنى ممكن لما يمكن أن
تكون به النذارة وحسبنا!

ولعل أمره تعالى لنبيه وتابعيه بالتولي عن قوم أبوا إلا
النكوص لإحكام معاني المفاصلة؛ ذلك أن القوم قد
يتماحكون أو هم قد يظنون أن بإمكانهم التوصل مع الفئة
المؤمنة إلى نصف طريق يكون بين بين؛ كما قد عرضوا عليه
أن يعبدوا إلهه يوما ومن ثم يعبد معهم إلههم يوما آخر
وهكذا أهل الباطل يساومون.

ولكن لأن طبيعة هذا الدين عزته، ومن ثم عزة تابع وكرامته، فكان التوجيه من الله صارما لا يحتمل غير معنى واحد هو ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا الْكٰفِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَاْ عٰبِدُ مَا عٰبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينِ﴾ [الكافرون: ١-٦].

ومنه كان الأمر بالتولي عنهم له مبرراته، ومنه كان الإعراض عنهم له مقوماته.

وهو درس يجب على الأتباع صياغته في واقع حال، لا يسد مسده لفظ بالمقال.

بلاغة حذف المفعول به: وألحظ عدم إشارة النص إلى ما يذكر به! وهو محل التذكرة! وهو بلا ريب قصد رباني كريم؛ ليجول الخاطر فيما يمكن احتماله موضوعا لذلك.

غير أنه وقد جاء ذكر المفعول به في غير ما موضع من القرآن الحكيم. ومن مثل قوله تعالى ﴿وَذَكَّرْهُمْ بِأَيَّامٍ﴾، ومن مثل قوله تعالى ﴿فَذَكَّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]. ومن مثل قوله تعالى ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا

فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ
قَوْلًا بَلِيغًا ﴿[النساء: ٦٣]. كل هذا ليفتح أمامنا مجالا
رحبا لاحتمال كل!

قال القرطبي رحمه الله تعالى: وذكر أي بالعدة فإن
العدة تنفع المؤمنين. قتادة: وذكر بالقرآن فإن الذكرى به
تنفع المؤمنين. وقيل: ذكرهم بالعقوبة وأيام الله. وخص
المؤمنين؛ لأنهم المنتفعون بها^(١).

كيف تكون التذكرة: وهو ما يفيد بأن للذكرى كونها
الموعظة أو القرآن أو التذكير بأيام الله تعالى ورابعها ما حل
بالقوم من عقوبات؛ مثلما جعل عاليها سافلها؛ كما قال
تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا
عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ مَّنْصُودٍ (٨٢) مُّسَوِّمَةً عِندَ
رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٣].

ومثلما أمطر قوما بحجارة من سجيل فجعلهم
كعصف مأكول، مثل ما قال الله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ

(١) تفسير القرطبي، عند هذه الآية.

رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ *
وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ
* فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ [الفيل: ١ - ٥].

وكل ذلك تحتمله الآية الكريمة؛ على قصرها!

بلاغة التعبير بالجملة الفعلية: غير أن تساؤلا يفرض نفسه إبان التعرض كشفا لبعض ما يجول بالخواطر، إذ يلحظ مجيء نظم الآية مبتدأً بجملة فعلية ﴿وَذَكَّرُ﴾، وعلى نسق الآية التي قبلها! وجاء مقطعها الثاني جملة إسمية، ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، على نسق الآية التي قبلها كذلك، وحين بدأت بجملة فعلية ﴿فَتَنوَّلُ﴾، ولما انتهت بجملة إسمية ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾.

إن هذا التناغم بين آيات القرآن ملفت، ومؤثر، ومعبر، وحمال لكثير أوجه بلاغة وبيان!

ولقارئ أن يلحظ تناسبا عجبا في عدد ألفاظ الآيتين نظاما. إذ إن كلا منهما خمس كلمات بالتساوي! وهو من نظم الكتاب وإحكامه، ومن تفصيله وإتقانه؛ لأنه ﴿اللَّهُ نَزَلَ

أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ
الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ
اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ
فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿ [الزمر: ٢٣].

من جمال التعبير: ومنه أيضا مجيء نظم كل منهما
مصدرا بجملة فعلية، تليها أختها الجملة الإسمية.

وهذا التقابل منح الجو القرآني جرسه، وأفاض إيقاعه،
حتى لكأنك تعيش وقعا له جميلا، وتأثيرا له بديعا؛ يشد
الهمم، ويغرس القيم، ويعلم الآداب، ويأخذ بالألباب؛ لأنه
تعالى قال ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

مقابلة بين آيتين: ولما يقول الله تعالى ربنا الرحمن
﴿وَذَكَّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ونقابها بقوله
تعالى: ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ أفلا يدلنا ذلكم
على أن المؤمنين بحق هم أولو الألباب؟!

وكونهم متذكرين؛ فهم كذلك بالذكرى منتفعون؛ لأنك
ترى المؤمنين فقط يسألون نبيهم ويستفتون رسولهم سؤال
إرشاد لا سؤال عناد!

الصحابة يسألون نبيهم صلى الله عليه وسلم: ومنه قوله تعالى ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ [النساء: ١٧٦]. وقوله تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢]. و ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ [الأنفال: ١]. و ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩]. ونظائره مما قد حفل به كلامه تعالى؛ مما ينبئ عن أمة قصدها الإنتفاع بالذكرى، لا مرية الجدل وقح الخصام.

بلاغة الفاصلة القرآنية: ومن إعجاز نظم كلامه تعالى أنه لا كسجع الكهان، ولا كقافية الشعراء، فيطوع كلامهم تتويجا لقوافيهم، وتجيلا لنثرهم. لكنه جاء في القرآن منسابا، جميلا، محكما، بليغا، سلسا، سهلا، يسيرا؛ ليؤدي أوسع معانيه، في أقل مبانيه، وليس بقادر على ذلك سواه تعالى.

المناسبة بين أصل المبنى ودلالة المعنى! ومن جميل أن أصل مادة ذكر مأخوذ من حفظ الشيء، ومن جريانه على اللسان، كما وأنه يشي بمعاني العظة والحمد والثناء.

وكأنما أريد بالتذكير إذن أن يكون للمرء سليقة وصفة
به لصيقة لصوق ما لابد له به. فحياته به إن وجد، وهلاكه
به إن عدم. ومنه كان اللزوم في حق المذكر والمذكر معا.

وهي ميزة فريدة كون الناصح والمنصوح قد أفادا.

وكما أن الذكر يشي بمعاني العظة والحمد والثناء،
وينضاف إليها آيات الحفظ والجريان ومنه غزارة دلائل
الخير فيه وتوارد مرادفات النفع به.

قلت: ومن سره كان اختيار القرآن للفظه، ومن بيانه
كان اختصاص الآية برسمه.

النبي ياتمر لأمر القرآن: ومنه حرصه صلى الله عليه
وآله وسلم على البلاغ، كما قال: بلغوا عني ولو آية، وحدثوا
عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمدا، فليتبوأ
مقعده من النار^(١).

(١) صحيح البخاري: ٣٤٦١

عموم الخطاب: وخطاب الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم خطاب لأُمته، إلا ما دل الدليل على خصوصية به، ولا خصوصية هنا، فأولاء أتباعه قاموا بحق الدعوة حق قيام، حتى أنار بها الكون، وحتى اهتدى بها القوم، فكانت مثالا يحتذى.

مناسبة حذف المفعول به: وحذف المفعول به بيانا لبيان! ذلك لأن الذكرى بمعناها الواسع موجهة كما أسلفت إلى الثقلين. وهذه من شامات الدين، وأخلاق الملة؛ محبة الخير لكل.

ومنه ندرك أهمية حذف المفعول به؛ دلالة على توجيه التذكرة للعموم، كيما لا يتهم الدين أنه استبعد أحدا قصدا من التذكير؛ ﴿لَعَلَّ هُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثْ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣].

وحذف المفعول به للعلم به جائز واهتماما به وارد، وحيث كان ذلك كذلك؛ إشارة إلى ما اتسم به القرآن الكريم

من اختصار؛ يفيد المعنى ويوضحه ويزيد الدلالة على اتساعه وشموله.

ومنه نفيذ التعبير بكلام جامع مانع تأدبا بطريقة القرآن لا إلى محاكاته فذلكم مسلك بعيد مناله وعزُّ دربه محال طرقة.

اختصارات ثلاث: وإذن أمامنا هنا اختصارات ثلاث، تمثلت في حذف كل من الفاعل والمفعول به وموضوع التذكرة! في مسافة قصيرة واحدة كان يمكن أن تسبب خلا في المعنى واضطرابا للذوق، وهذا سائغ في حقنا - معاشر البشر - جائز وروده وحتم وقوعه، ولكنه أكد المحال في كلام ربنا المتعال سبحانه؛ لأنه ليس بكلام بشر! بل هو كلام رب البشر!

غاية الدين: وغاية التذكرة هي غاية هذا الدين! إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

وتلك هي المسافة الفاصلة بين ديننا - نحن المسلمين - وما ادعاه غيرنا من أنه دين! تلييسا على العباد، وكذبا على

رب العباد، سبحانه كيما يعيشوا كرماء تكرم ربهم لهم،
يوم أن أعزوا أنفسهم، ولم يدينوا لغيره؛ فرفعهم به.

موجب التوكيد: وجملة ﴿ فَإِنَّ الذِّكْرَ يُنْفَعُ
الْمُؤْمِنِينَ ﴾ مؤكدة.

وحسبنا أن نخط عندها قليلا ركابنا.

فإن التوكيد عادة كما عهدته العرب يكون رفعا لشك
أو دفعا لريب!

فهل حام شيء من ذلك ليؤكد الله تعالى؟!

والجواب الحاسم: ولم لا يكون ثمة ريب في فاعلية
الذكرى، مع الإصرار، وضرورتها مع الاستكبار؟

وهي فاعلة فعلها اذا خالطت بشاشتها القلوب.

أقول: إن اجتماع القوم على الدعوة، وزعمهم النيل
منها، أدى بهم إلى الركون إلى عدم نهوضها، قوة حاسمة في
جذب القلوب إلى الله تعالى، ولا سيما المؤمنة منها، أو ما يقرأ
على صفحة جبينه لين، أو يتلمس من سيرته قبول؛ ومنه

كان اليقين من قوله تعالى ﴿ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾، وهي بذاتها حاملة لأمصال الهدى والرشد.

أهمية الذكرى: ومنه نعي أهميتها، وندرك ماهيتها، وعنهما غير غافلين، وبها مستمسكون؛ سبيلا إلى الإرشاد، وطريقا إلى مرضاة رب العباد.

فكم من أمة بها سلكت إليه دربها! أو قد هوت أخرى إلى القاع؛ لما أهواها الردى، بمنكر من القول وزورا؛ لأن زادها نفعها!

دلالة الألف المقصورة: بيد أني أرى أداء يخلق، مستوحى من كونها ﴿ الذِّكْرُ ﴾ مختومة بالألف المقصورة! ذلك أنهم قالوا في تعريفها بأنها الألف التي اختصرت لفظا أو اختزلت، وهي خلاف الألف الممدودة التي تليها الهمزة في نهايتها (١).

(١) المستشرق رايت. قواعد اللغة العربية: Part:2 196٠ rd Edition -
W. Wright: A Grammar of the Arabic Cambridge
Language

ومنه كان للقرآن نظمه الفريد. إذ ما هو يا ترى ذلك
اللفظ المختصر، أو ذاك القول المختزل؛ ليعين كهكذا شأنه
على استجماع أهميته في القلوب تأثيراً، وتضافر معانيه ليؤتي
أكله؟

ومنه؛ ويكأنني بها تملأ الأفق بنسيمها ليتسنىم عليل
برحيقها فتراه مستريحاً بعد نصب.

وجاء قوله تعالى ﴿ فَإِنَّ الذُّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾،
جملة إسمية؛ لتورف بظلال الثبات، وتخيم على جو الآية
استمرار ! فثبات عطائها نفعا للمؤمنين، وجريان سيلها
هدى للسالكين؛ قمن أن يعرض عليها بالنواجز؛ ولأن تقطع
من أجلها القفار!

وأنعم بها للرشد سببا، وللهدى معينا، وأوجب ذلك
إعمالها، وحرّم إذن إهمالها.

دلالة فاء العاقبة: ومن سمت القرآن الكريم وجود فاء
العاقبة تالية للفعل ﴿ وَذَكَّرْ ﴾ وهي لا تخلو من دلالة الربط

بين صدر الآية وعجزها برباط التعقيب! وذلك استشرافا
لنفعها.

ثبات واستمرار: أما وقد دلت على الثبات لأنها إسمية،
فقد دلت على الاستمرار بخبرها ﴿تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كجملة
فعلية؛ ليألف الثبات مع الاستمرار ، وهذا أكد في عظمة
البيان، وطلاقة القدرة، في إبراز المعاني الفاضلة لألفاظ
اللغة، وكيف أمكن تطويعها؛ لأن تعطي ذلكم عطاء، وكيف
كان هديرها؛ لتمد بذلك إمداد؟! ذلك لأنه القرآن العظيم.

بلاغة التجسيم: وكأنما الذكرى كائن حسي ير وح
ويجيء داعية إلى الخير ناهيا عن الشر. وهو أيضا تصوير
رباني كريم بلاغته، إن قلت عالية فلا يكفي لها وصفا!
نسيمه عليل فلا يشفي! غير أنه تصوير الله وحسبنا!

وكيف تأتي لهذا التصوير أن ينحو بالقلوب ويأطرها
على الإذعان للقرآن طوعا أو كرها ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ
الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤].

ووسمها بأنها نافعة هو وصف الله لها وحسبنا! وإذن
فلا مكابرة في كونها ترياقا لسموم الضلال، وآفات الانحلال،
وأدواء الإخلال.

وَحُقَّ أَنْ نَحْسَنَ بِهَا - التذكرة - أداء واستشعارا
لوظيفتها سببا لتعبيد الناس لربهم الحق. ولأنَّ عبد الله بن
مسعود رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه
وسلم كان يتخولنا بالموعظة مخافة السامة علينا^(١).

ومنه فلست أرى أن استمرارها وثباتها مؤذن بنفعها كل
حين أبدا؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يتخول
بها؛ وذلكم من هديه، وكان التحين لها من سننه.

وهو نظام منوط بتوفيق الله تعالى لعبده؛ لاختيار أوقات
التذكير؛ فإن للقلوب أوقاتا نصيدها، وللأفئدة أحيانا نفيدها،
ولرب صاد عن السبيل غير مستشعر، ولرب رام بغير رمية
فتأمل.

(١) صحيح البخاري: ٦٨

أخرج الإمام البخاري رحمه الله تعالى: كان عبد الله يذكرنا كل يوم خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن إنا نحب حديثك ونشتهيهِ، ولوددنا أنك حدثتنا كل يوم، فقال: ما يمنعني أن أحدثكم إلا كراهية أن أملككم، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتخولنا بالموعظة في الأيام، كراهية السامة علينا^(١).

(١) صحيح مسلم: ٢٨٢١

علاقة بين آيتين

ويكأنني ألمح في قوله تعالى ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۚ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥]. دليل تقديم الحكمة على كل عمل. ومنه الموعظة ولو كانت حسنة! بل إنها لن تنال حسنها مالم تتقدمها حكمة تهدهدها، وحنكة تهذبها؛ كيما يكون الصيد غير جائر ، ويتأكد للزرع إزهاره، ويتأتى للحصاد إثماره، غزارة، ونفعا، فليس يكون حنظلا، وليس يكون صبرا.

وقد أسلفت أن حذف المفعول به للفعل (﴿ وَذَكِّرْ ﴾) اجتباء! وألمحت أنه حاكم بين عموم الخلق إنسا أو جنا، لكيلا يقال: إنه ترك فئة؛ غنى عن دعوتهم وبها يتذرعون! وأزيد؛ أو قوما انتخبوا؛ فيقال: محاباة!

وهنا تتبدى ملكة البيان، وبلاغة القرآن، في اختيار حرفه، وسبك لفظه؛ لأنه ﴿ وَذَكَّرْ ﴾ ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۖ إِذَا لَازَتْكَ ابَّ الْمُبْطِلُونَ ﴾ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٨ و ٤٩].

وحكم الله تعالى، بنفع التذكرة للمؤمنين، حاكم أيضاً.

سؤال وجوابه

لكن سؤالاً قد يطرأ: ما طريقة الجمع بين قوله تعالى ﴿ وَذَكَّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾، إذ حكم بنفعها، وأكد به بالحرف الناسخ المؤكد إنَّ، وبين قوله تعالى ﴿ فَذَكَّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ [الأعلى: ٩]. إذ جيء بحرف الشك إنَّ! وأقول: كما قال ربنا تعالى ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وأقول ﴿ كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران: ٧].

وأنقل سؤالاً وجهه للشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله تعالى وجوابه حول هذه المسألة، فلعله يرفع حجاباً أو يزيح ستاراً :

السؤال: يقول بعضُ المفسرين في تفسير قول الله ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى: ٩] أي: ذكّر حيث تنفع التذكرة؟

الشيخ: هذا ليس بشرط، إنما هو وصفٌ أغلبيٌّ، يعني: تَعْظُمُ الفرضية والوجوب عند انتفاع الناس بالذِّكْرَى، وإنما هو أمرٌ بالتذكير، عسى أن ينتفعوا، ولهذا جاء في الآيات الأخرى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١]، و﴿ذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

فالإنسان يُذَكَّرُ، والنفع بيد الله، لكن إذا نفعت الذِّكْرَى يكون الوجوب أشدَّ، وتكون الفائدة أعظم، فإذا رأى منه

الانتفاع والاستفادة فالواجب عليه أن يتضاعف وَيَقْوَى وَيَكْتَبِر^(١).

غير أن السياق هنا له طريقته وهناك له طريقته على طريقة التصوير القرآني.

وأقول: إن نفع الذكرى للمؤمنين حكم من الله تعالى، وقابل واقعا حقيقيا، يشهد لصحته، فقد كانوا يتحلقون حول رسولهم صلى الله عليه وسلم؛ ليسألوه، ويجلسون عنده ليحاوروه؛ نهلا من وحيه، ودرسا من سننه، إذ فيهما الهدى والنور والسعادة والسرور؛ لأنه صلى الله عليه وسلم قال: إني قد خلفت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما أبدا ما أخذتم بهما، أو عملتم بهما: كتاب الله، وسنتي، ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض^(٢).

وأخرج الإمام البخاري رحمه الله تعالى من حديث أبي إدريس الخولاني أنه سمع حذيفة بن اليمان يقول كان

(١) بيان عقيدة أهل السنة والجماعة: ٤ / ٤٤

(٢) الإحكام في أصول الأحكام، ابن حزم: ٢٥١/٢

الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير
وكنْتُ أسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت يا رسول الله
إننا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا
الخير من شر قال نعم قلت وهل بعد ذلك الشر من خير قال
نعم وفيه دخن قلت وما دخنه قال قوم يهدون بغير هديي
تعرف منهم وتنكر قلت فهل بعد ذلك الخير من شر قال نعم
دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها قلت يا
رسول الله صفهم لنا قال هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا
قلت فما تأمرني إن أدركني ذلك قال تلزم جماعة المسلمين
وإمامهم قلت فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام قال فاعتزل
تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك
الموت وأنت على ذلك^(١).

ومنه حرص حذيفة رضي الله تعالى كنموذج لهؤلاء
الأتباع على مدى تعلقهم بالوحي وتضلعهم بالذكرى!

(١) صحيح البخاري: ٦٦٧٣

ومقامي هنا فقط لأقف بالقارئ الكريم على هذه الحقيقة التي نلمسها في الحديث الشريف من ذلكم الحرص من هذا الرعيل الكريم أن يكونوا أمة خلقها القرآن كما هو رسولهم صلى الله عليه وآله وسلم.

وقوم هذا شأنهم يتشوفون نصح نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم فماذا أنت قائل إذن عند تلقيهم نبأ الذكرى؟! هل فعلا استحقوا وصفا نفعا بها؟

وجواب حاسم: وأن نعم!

ومنه يتحصل القول بأن غلبة نفع التذكرة قائمة، وحكمة إعمالها واقعة. وخاصة إذا ما قابلت قلبا خشوعا وفؤادا قنوتا. أليس قد قال مولانا الله ﴿سَيَذْكُرُ مَنْ يَخْشَى﴾ [الأعلى: ١٠]

وسبق أن ذكرت قرآنا، وتلوت فرقانا، نزل أسئلة منهم له صلى الله عليه وآله وسلم؛ ليضيف تأكيدا لهذه الحقيقة البالغة حد علم اليقين حتى بلغ عدد ورود كلمة يسألونك أربع عشرة مرة؛ تنبئ عن الحرص وتوجب الانتفاع بالذكرى.

ومنه ورود كلمة ويستفتونك أربع مرات. وحديث نساء
الأنصار لما نزلت آية الحجاب مشهور نبين منه هذه
الأطروحة بجلاء.

ومقابل ذلك نجد قوما جاء نعتهم زاكما للأنوف
سمجا صعبا نكدا؛ كما قال تعالى ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ
قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي
كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبَعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ
وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ
إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ
إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٥ - ٩].

وهؤلاء هم قوم نوح!

وكل نبي كان من قومه مثل ذلكم قبيل! وعليه لا
يستغرب أن تكون الموعظة لها محلها، فتتفع كأرض سهلة
لينة، أنبتت الكلاً والعشب؛ كما في الحديث عن أبي موسى
الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:
مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير
أصاب أرضاً، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلاً

والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت الكلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به (١). وكما قال تعالى ﴿سَيَذَكَّرُ مَن يَخْشَى﴾ [الأعلى: ١٠] وليس ببعيد أيضاً أن تقابل بأرض جدباء لا تنبت، فذلك قول الله تعالى ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ [الأعلى: ١١]

ولينظرن قارئ كريم في تركيب الفعل: يتجنبها، وما أوحاه من بنية أوجبت نفرة القوم من الهدى؛ وبهذا الاجتناب، الذي أنبأك عنه، هو هذا المبني الغزير!

إن فسياق الآيتين فصل في المسألة.

فالمؤمنون أهل للانتفاع؛ لسلامة صدورهم، ومروءة نفوسهم، وحسن قصدهم.

(١) صحيح البخاري: ١٧٥/١

والأشقياء محرومون؛ لفصامهم النكد، ولجبلتهم
الوعرة، ولطويتهم السيئة.

وكفى بربهم نعتا لهم على أفعال التفضيل ﴿الْأَشْقَى
﴿؛ ولأنهم كذلك؛ حكمت السماء بحرمانهم، حتى وكأنهم لم
يجدوا للهدى سبيلا إلا واجتنبوه!

تقلب القرآن ببيان الذكرى!

وورود كلمة الذكرى في غير ما موضع من كتابه تعالى
لها ظلالها الخاصة بهذا الموضع، وتكتسب دلالات فيه،
مختلفة عن أدائها في موضع آخر، وإن اشتركت في بعض
الملامح العامة للصيقة بها.

وهذا هو القرآن بأدائه الفريد، وتنوعه المجيد، فسبحان
قائله، وتبارك منزله.

والأمر يسري بطبيعة الحال على نظائر ذلك كله.

واستحضار كلمة الذكرى أمامنا في قوله تعالى ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ [عبس: ١١ و ١٢].
وجرسها الموحى بما تضيفه كلمة كلا من ردع وزجر، وما يخيم على الجو العام مما تقتضيه طبيعة المال الحاسم، والجزاء المنتظر، للسالكين مدارج الكمال في التقوى، واتخاذ القرآن كافيا، كمنهج حياة كريمة، وكفى به تذكرة؛ كما ذكر الله تعالى. وذلكم في مواجهة قوم آخرين، اتخذوا هذا القرآن مهجورا؛ كما قال الله تعالى ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

ومنه قوله تعالى ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۖ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٤ - ٥٦]. وهي استخدامات شتى للكلمة؛ مما يؤذن بأهميتها عنده تعالى، وأهميتها في هذا الدين تبعا.

ومنه أيضا مجيئها في قوله تعالى ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذُّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣]. في يوم الملامة، وماذا تفيد سوى الحسرة

والندم، على فوات الآجال، وانقطاع الآمال، وهو إذ ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤]. من عمل صالح!

وأقول: إن هذا الأداء لكلمة الذكرى ههنا، غير أدائها في قوله تعالى ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. فلكل ظله.

فمشاهد القيامة، ونصب الموازين، وقيام الناس لرب العالمين، خيم على كلمة الذكرى؛ أداء لما يقتضيه الموقف، من شدة، ومن تعرق، متفاوت؛ تفاوت الأعمال في الدنيا.

هذا غير من أدائها في سورة الذاريات؛ كون أن الإنسان مازال في بحبوحة الحياة، ولم يدركه أجله بعد، فسبحان من أنزلها هنا! وسبحان قائلها هنالك!

استشراق الفأل الحسن

وبقي ذكر أن التذكرة بلطفها وأن الموعظة برفقها
داعية للفأل الحسن كما وأنها داعية للاستئناس وراحة
الضمير.

ذلك أنها لما نزلت بعد إذ أشفقوا على أنفسهم، رأيناهم،
وقد سري عنهم؛ كما يفهم من قولهم: فطابت أنفسنا.

وهذا درس بليغ للدعاة العاملين؛ أن يبعثوا في نفوس
المدعوين الراحة والاطمئنان، حال دعوتهم؛ ليكون أدعي في
قبولهم، وأرجى لإذعانهم.

الفصل الرابع

تفسير الآية السادسة والخمسون من سورة الذاريات

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

قوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾: [الذاريات: ٥٦].

أصل مادة الإنس وأصل مادة الجن

والإنس من الأُنس به، أو نسيانه، والجن ما خفي عنا.

وقيل: إن هذا خاص فيمن سبق في علم الله أنه يعبد، فجاء بلفظ العموم ومعناه الخصوص. والمعنى: وما خلقت أهل السعادة من الجن والإنس إلا ليوحدون^(١).

(١) تفسير القرطبي، القرطبي: ج ١٧ / ٥٥

والآية لهذا محتملة والعموم أيضا؛ ذلك أنه تعالى نص
في الآية أن سبب الخلق؛ إنما هو لكي يعبد المخلوق من الجن
والإنس، ولا صارف نسا عن هذا.

قال القشيري: والآية دخلها التخصيص على القطع، لأن
المجانين والصبيان ما أمروا بالعبادة حتى يقال أراد منهم
العبادة (١).

وأقول: إن دليل الخطاب في الأصل لا صارف له عن
عمومه؛ وهؤلاء الذين ذكر القشيري رحمه الله تعالى ليسوا
مخاطبين! وليسوا بالتالي مكلفين؛ فذكرهم إذن خارج الدليل.

(١) المرجع السابق: ج ١٧ / ٥٥

أصل مادة العبودية

وأصل العبودية الخضوع والذل، والتعبيد: التذليل؛
يقال: طريق معبد. قال طرفة بن العبد:

وظيفا وظيفا فوق مور معبد
والتعبيد: الاستعباد، وهو أن يتخذه عبدا. وكذلك
الاعتباد. والعبادة الطاعة، والتعبد التنسك. فمعنى ليعبدون
ليذلوا ويخضعوا ويعبدوا.

وأجمل إجمالا لأقول: وإنها لتمثل غاية الديانة، وهدف
الملة، من تحقيق العبادة له تعالى وحده، على الوجه الذي
شرعه، ومنه خاصة إذا عرفنا أنه قد ورد من أقوال أهل العلم،
ما يشير إلى أن المقصود بالعبادة هو التوحيد؛ كما نقل ابن
كثير رحمه الله تعالى عن الكلبي أنه قال إلا ليوحدون.

ومنه يسوغ القول بحق إنها تمثل عماد الإسلام،
وركنه الأول، الذي إذا قام به العبد غفر له ما دونه؛ كما قال
الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ
ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

براعة سورة الذاريات

ومنه تتأكد أهمية سورة الذاريات؛ بوصفها قد نص فيها آية كالتى معنا الآن؛ لتكون حاكمة على الدين كله، شاهدة على ركنه الأول.

ولأهمية ركن العبادة التوحيد، فناسب أن يقدم لها النص، بتوطئة تتناسب، وعظيم شأنها، وكريم مقامها معا.

إذ قد جاءت السورة كلها تمهيدا لتلقي القلوب هذا النبأ العظيم، حتى وكأنها تآقت إليه، بعد أن دلت عليه، وأرشدت إليه، وهذا شأن القرآن المكي، ومنه سورة الذاريات، قوارع للأفئدة، بآيات حاسمات مؤثرات.

بيان هام

وأعود إلى بيان هام؛ ذلك أن الله تعالى قد لخص عقيدة التوحيد، قولا مختصرا، في آية هي من القصر؛ كما هو باد، من نظمها؛ دليلا على بساطة هذه العقيدة، وخلوها مما يعتري غيرها من التعقيدات، وما يشوب سواها من الأساطير

والترهات! وتلك ميزة التصور الإسلامي الرصينة في التأسيس لهذه العقيدة كيما تناسب كلا .

ومناسبة عقيدتنا لسائر من كان محلا للخطاب من الثقلين؛ لبساطتها، وسهولتها، يضيف عليها جانب القبول، والإذعان والرضا والتسليم، بلا حاجة إلى مجلدات، تكشف أساطيرها، ودون اضطرار إلى كاهن، يدلي بما يمليه عليه شيطانه، أو حبر، يلبس على الناس دينهم، فهي صافية نقية دل على صفائها قولها وحين سئلت: أين الله؟ قالت في السماء قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله، قال: أعتقها، فإنها مؤمنة^(١).

وكان من صفاء عقيدتنا وجلاء ملتنا ما نحفل به في خطبنا احتفاء برسولنا صلى الله عليه وسلم أنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، وكشف الله به الغمة، ونصح الأمة، وتركها على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يضل عنها إلا هالك.

(١) صحيح مسلم: ٥٣٧

فهي بيضاء ناصعة سلسلة؛ ولما كان من سلاستها
التعبير عنها بهذا قول مجيد: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ
إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

سؤال وجوابه

وسؤال يطرح نفسه: إذ كيف أن الله تعالى خلقهم، وما
خلقهم إلا ليعبدوه، ونرى منهم الكافر؟!

وأقول: إن خلقه تعالى لذلك وظيفة مركوزة فيهم؛
إرادة قدرية خلقية، وقيامهم بها إرادة دينية شرعية. ولا
منافاة.

ومن جانب آخر فإنك ترى مدعي الكفر وزاعميه إلى الله
تعالى وحده يلجأون، ووحده يدعون، مخلصين له الدين، إذا
ركبوا في الفلك!

قال الله تعالى ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ
مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾
[العنكبوت: ٦٥ و ٦٦].

ذلك لأن الفطرة ناطقة، إذا ما خلى بينها وبين بارئها سبحانه! ولا يخلو بينها وبينه تعالى إلا في الملمات! ولا تخلص إلى ذلك إلا على مشارف الصعوبات والأزمات! فتؤوب إلى ما ركز فيها! وهي إذ كانت في مثاقيل الذر! وذلكم في عموم الخلق! وإلا فقد شهد التاريخ أن قوما عرفوه في الرخاء؛ كما هم قد أخلصوا له في الشدة!

قال الله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۖ شَهِدْنَا ۚ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۝﴾ [الأعراف: ١٧٢].

دلالة حرف العطف الواو: وأجلي بعضا؛ من فتحه تعال حول آيتنا محل البيان، مستلهما منه الفتح المبين: فأقول: إن بدء الآية نظما بحرف العطف الواو يبين عطفها على آية الذكرى، فكأنه تعالى يريد أن يوجه القوم، إلى أن من

أعظم ، هو ذلكم صرف الناس إلى ربهم الحق، وحده بلا شريك!

وهذه هي غاية الإسلام العظمى.

بلاغة أسلوب الحصر

وتلك مقدمة: ووجود الفعل ﴿ خَلَقْتُ ﴾ بين ما وإلا، في أسلوب قصر بليغ؛ يعطيه زخما، ويهبه هالة، ويكسبه قوة، ويضفي عليه معنى جميلا، ويمنحه ظلا وارفا؛ تناغما مع كونه تعالى وحده الخالق بلا شريك. وتلك مقدمة.

وتلك نتيجة بدهية: فهو إذن المستحق وحده للعبادة أيضا بلا شريك، وتلك نتيجة بدهية.

وكأنما تنعى على سائر من خالف، وتشنع على عموم من أشرك.

دلالة ضمير الفاعل

وتاء الفاعل في الفعل ﴿ خَلَقْتُ ﴾، مرشدة إلى أنه الواحد وحده، كاشفة على أنه الموجد وحده، في طلاقة مبهرة. وكأنما يشدو بها الكون لربه موحدًا، فيفرده دون سواه بالوحدانية. في أمره ونهيه؛ وكما من خلقه وإيجاده وصنعتة وإبداعه.

وكانني برربي سبحانه يقول لنا: أنا الخالق وحدي؛ ومنه فأنا المستحق للعبادة وحدي؛ فأوجبت التاء به اهتمامًا، وبينت له تعظيمًا.

برهان التعظيم لله تعالى

وهي تاء المتكلم، إن وجدت؛ فهي دليل العظمة، وإن نصت فهي برهان التنزيه، وحيثما قالها الله تعالى، فإنها آية على سائر معاني التقديس والتنزيه له تعالى. وإن كيف لا ؟ وهذا قوله تعالى ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۗ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧].

وتاء المتكلم كضمير متصل نيابة عن الفاعل أدت وظائف ثلاثا في آن واحد:

- ١- فهو رابطة بين أجزاء الكلام، ليبدو وحدة موضوعية واحدة، وإن منحت غير معنى.
- ٢- وهو دال على تعظيمه تعالى وتفخيم شأنه؛ كما هو لائق به تعالى، وكما واجب علينا نحوه سبحانه.
- ٣- وهي دالة الاختصار ، وآية الذكر الحكيم؛ أنه قل ودل!

وكانى برى الرحمن سبحانه يعجب لقوم ما خلقوا إلا لعبادته، وهم قد أشركوا به مالم ينزل به سلطانا، وما ليس لهم به علم، فى الوقت الذى لو قاموا لما له خلقوا، لكان شأنهم أرفع، ولكان عملهم أوقع، بعيدا عن تكليفهم أنفسهم، مالم يكلفوه، أو التعرض لما لم يطيقوه، ولكتب لهم عزا؛ لأنهم فروا إليه!

وهذا من النبأ العظيم، كائنا بينه تعالى وبين خلقه؛ كونه تعالى خلق، ويعبد سواه! وهو سبحانه الرزاق وحده،

ويشكر سواه! ومنه تشتم رائحة كهذه من فحوى الآية
الكريمة ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

وإذ لا يسوغ ذلك - عبادة غيره تعالى - أن يكون طارئاً
على الكون، فضلاً عن أن يكون واقعا فيه. فأهل وحده أن
يعبد؛ لأنكم ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۚ إِنَّ اللَّهَ
لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨].

ومما يزيد التعجب أنه تعالى غني عن العالمين؛ فإنهم
كلهم لن يبلغوا نفعه فينفعوه، ولن يبلغوا ضره فيضره؛
كما قال سبحانه: يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم،
ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير
ذلك فلا يلومن إلا نفسه. وفي رواية: إني حرمت على نفسي
الظلم وعلى عبادي، فلا تظالموا^(١).

ولهذا لا يجد العقل الصريح مسوغاً مقبواً لا للحيود
النكد عن عبادته تعالى، وهو مشرئب إلى عبادة غيره!

(١) صحيح مسلم: ٢٥٧٧

بل إنك لتجد ثمارا مرة لا يكاد المشرك بالله إلا خاسرا
عندها، ولا تجده إلا جائعا لا يشبع، ظامئا لا يرتوي، خائفا لا
يأمن!

ألم تر أن الله تعالى قال ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ
يُعَوِّذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

إن هذه هي النتيجة التي تبين حقيقة حياة المرء، يوم أن
يتعبد غير مولاه، ويوم أن يدين لسواه!

ولقد جاء تصوير كل عابد لغيره تعالى أو مشرك معه
سواه، بنعوت الخيبة والسفل، فبيوتهم هاوية؛ ومن كقوله
تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ
الْعَنَكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَنِيًّا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ
الْعَنَكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

فهم مرتكنون لا إلى جدر تسندهم، بل إلى جرف هار؛
ومن كقوله تعالى ﴿أَفَمَن أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِن اللَّهِ
وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ

فَأَنهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۖ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ [التوبة: ١٠٩]. وهو زبد جفاء.

ركنا العبادة

ولا تكون العبادة عبادة إلا بشرعه تعالى، وخالصة له
وحده دون سواه؛ لأنه تعالى قال: أنا أغنى الشركاء عن
الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته
وشركه^(١).

وهذا مقتضى الغنى المطلق لله تعالى.

بل إنما الأعمال أداؤها ابتلاء للقوم: وهل قاموا بواجبهم
نحو خالقهم؟ وهل قابلوا وضعا للعبادة على وجهها؛ كيما
ينالوا التكريم، وكيما يفوزوا بالجنة؟

(١) صحيح مسلم: ٢٩٨٥

حول الفعل المضارع ﴿لِيَعْبُدُونَ﴾

ونلاحظ كيف أدى الفعل المضارع ﴿لِيَعْبُدُونَ﴾ أداءه،
بإفراده تعالى بالعبادة، من جملة متعلقات، اتصلت به؛
جعلته قائما بالمعنى، على أكمل وجه:

١- وذلك من مثل سبقه بأداة الاستثناء.

٢- ومن مثل اتصاله بلام التعليل؛ ويكأنه تعالى
يقول: لهذا فقط خلقتك؛ فلا يمنة تروح ولا يسرة تلهو.
طريق مستقيم واحد لاعوج له!

٣- وأداة الاستثناء إلا؛ على منحها للمعنى جزالته.
فإنما أسبغته قوته، علاوة على حصر اقتضته، فلا يقبل
من العبد غيرها، وعلى قصر بينته، فهو مخلوق قصرا على
عبادة مولاه وحسب!

٤- وليس عليه بعد عناء، لا في تدبير معاشه، ولا
هو خائف يوم معاده. فما هو إذن يريد بعد ذلك المخلوق
التائه المسكين؟!

٥- ومن متعلقات الفعل المضارع واو الجماعة، كضمير، بارز، متصل، فاعل؛ لتعم سائر خلقه، فلا يخرج أحد البتة عن ركب العابدين، ولا يحيد أحد عن سبيل الموحيدين. فهي أنشودة العبودية، لسائر البشرية، والجن قبل؛ لأنهم قالوا ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾ [الجن: ١]. فأذعنوا عن رضا وآمنوا بيقين.

٦- والفعل المضارع ﴿ لِيَعْبُدُونِ ﴾، حافل بياء المتكلم المحذوفة! كضمير، بارز، متصلن مفعول به أيضا.

وهذا الذي جعله زينة للآية! بل زينة السورة كلها؛ بموجب الاختصاص؛ الذي أفاضه، كونه تعالى مختصا وحده بالعبادة، لا يشاركه أحد معه أو من دونه في شيء ولو يسيرا منها. فإن القليل كالكثير هنا! حكمهما واحد؛ وكما ورد: ما أسكر كثيره فقليله حرام^(١).

(١) صحيح النسائي، الألباني: ٥٦٢٣

بلاغة الضمائر

وتضافر الضمائر البارزة المتصلة، رغم قصرها، أضفى على الآية الكريمة حلتها، وأكمل لها بهجتها، ناسب اختصارها، وأسداها كمالها، حتى أوفت - بحق - كامل المعاني، بأقل المباني.

وهذا هو شأن القرآن الحكيم أبداً؛ وذلك من مثل تاء الفاعل في الفعل خلقت، ومن مثل واو الجماعة وياء المتكلم في الفعل ليعبدون.

وهذه الضمائر، وبما أفادته، من التفات، موجب للاهتمام، فإنما كذلك أعطت للنص حركة دائبة كالهدير يجري في الغدير.

وميزة للقرآن الحكيم كهذه تمنحه القبول، وتهبه التأثير في النفوس، فيستجيش فيها جوانب الخير، وتخضع له الجنان، فتنزوي عنها دواعي الشر ، وهذا هو الشأن فيه كونه ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ

مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۖ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿الشورى: ٥٢﴾.

وكونها عبادة لله تعالى خالصة مبتناها على وفق شرعه
منضافا إليها كامل الحب وكامل الذل.

سراختيار لفظ العبودية

وأصلها اللغوي حاكم بهذا؛ لأنه يقال طريق معبدة أي
مذلة لسالكها، ممهدة لعابريها، ولهذا كان السر هنا في
اختيار لفظ العبودية، عما سواه ناهضا لإفراده تعالى
بالألوهية والدينونة له وحده بالربوبية.

وفي قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾
﴿اهتمام بشأن الجن، واهتمام بشأن الإنس معا. كونهما
المخاطبين بالتكليف بالقيام بحقه تعالى بالعبودية، وهو
تشريف بالغ لكل، وجب مقابلته بما يسوغ من قبل كل
منهما، شكرا لله، وقيامًا بحق هذه العبودية، من إخلاص،
فلا شائبة شرك، ومتابعة فلا ابتداء.

حكمة تقديم الجن على الإنس

وقد تكلم نفر من أهل العلم في حكمة تقديم الجن على الإنس في الآية نظاما. ولعل ما برروه في ذلك هو تقدم

الجن على الإنس خلقا، كما قال تعالى ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴾ [سورة الحجر: ٢٧]. أو لأنهم أكثر قوة من الإنس واستدلوا بقوله تعالى ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [الجن: ٦] (١). لما رأوا من قوتهم.

ومن حكمة تقدم ذكر الجن أنهم كانوا من جند سيدنا سليمان عليه السلام؛ كما قال تعالى ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [سورة النمل: ١٧].

وفي مظان القوة قال ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

(١) () صالح المغامسي، مادة مسجلة.

فَانْفُذُوا ۚ لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ [الرحمن: ٣٣]. فبدأ بهم أيضا ترتيبا.

حكمة تقديم الإنس على الجن

لكن الإنس تقدموا ذكرا على الجن في مواضع أخرى من الكتاب الحكيم؛ كما قال تعالى ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]. وأجابوا بأن وجه التقديم هنا بمقتضى الحال بلاغة؛ فإن الإنس أبلغ مقالا، وخاصة أهل مكة منهم، فقد كانوا ذوي ملكة بيانية.

ومما أجابوا به أيضا على وجه تقدم الجن في آية الذاريات؛ لاستبشاع صرف الناس عبادتهم لغيره تعالى.

وتقديم الجن في الذكر في قوله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾؛ للاهتمام بهذا الخبر الغريب عند المشركين الذين كانوا يعبدون الجن ليعلموا أن الجن عباد لله

تعالى، فهو نظير قوله ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ (١). [سورة الأنبياء: ٢٦].

وهي غرابة تنبع من ظلم بين؛ إذ ما دمنا قد سلمنا بأنه تعالى هو الخالق، فلم لا نسلم له تعالى بالعبادة، وهو أحق وأولى؛ لهذا المسوغ، في الوقت الذي لا ينهض دليل على تسويغ صرفها لسواه تعالى؟

وأجابوا بوجه التقديم ما يشي بأن الجن عبادتهم لله تعالى سرية خفية^(٢). عكس ما للإنس، إذ غالبها أن تكون علانية جهرية!

وهو مما يثير تساؤلاً له محله: إذ هل يبعد أن تختلط عبادة الجن بشيء من الرياء أو الشرك خفائه وجلائه؟

قالوا: من حيث القدرة على العمل والصناعة، الجن أقوى من الإنس، فهم يفضلون الإنس من هذه الناحية، ولهذا نجد أن القرآن الكريم في أسلوبه يفرق، إذا تكلم عن الجن

(١) (التحرير والتنوير: ابن عاشور ٨٢/١٣)

(٢) التفسير الكبير للرازي

والإنس في أي حديث يتحدث عنهما، يقول الله جل وعلا " قل
لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا
يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا " .

ويقول جل وعلا في سورة الرحمن " يا معشر الجن
والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات
والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان " فنرى أن الله
تعالى قدم الإنس في سورة الإسراء وقدم الجن في آية الرحمن
والسبب في هذا.. أن آية الإسراء تتحدث عن القدرة البيانية
البلاغية وهي أن يؤتى بمثل هذا القرآن، فقدم الله تعالى الإنس
لأنهم أفصح بيانا من الجن، في حين أن آية الرحمن تتحدث
عن القدرة القوية البدنية وهي النفوذ من سلطان السموات
والأرض فقدم الجن على الإنس لأنهم أقدر على ذلك منهم،
ونظير هذا أيضا في القرآن أن الله تعالى لما ذكر سليمان عليه
السلام قال " وحشر لسليمان جنودهُ من الجن والإنس
والطير " فقدم الجن على الإنس في هذه الآية لأن القدرة
العسكرية الحربية القتالية لديهم أقوى من الإنس، ولهذا
استقر في طباع الإنس حتى قبل الإسلام أن الجن أقوىاء

فكانوا يهابونهم، ومنه قول الله تعالى على لسان الجن "وأَنَّهُ
كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم
رهقا" ويقول الفرزدق وهو يفتخر على جرير:

أحلامنا تزن الجبالَ رزانة وتخالنا جنا إذا ما نجهلُ
إنا لنضربُ رأسَ كلِّ قبيلةٍ وأبوك خلف أتانِه يتقملُ
فالفرزدق يفتخر على جرير عندما يحاربون ويظلمون
أنهم يصبحون كالجن في القوة والشدة والبطش^(١).

ومهما يكن من أمر، ومع التقدير لمذاهب أهل العلم، في
دلالة تقدم ذكر الجن على الإنس تارة، وتارة في تقدم
الإنس كما آية الإسراء، وهي أقوال لها ملاحظتها؛ تأسيسا
على أن كتاب الله ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [سورة الشعراء:
١٩٥]. وما جاء حرف أو كلمة أو جملة أو آية إلا ولها
حكمتها البالغة، ومعانيها الهادرة، وبيانها الخاص بالقرآن؛
كونه معجزا.

(١)

وأقول: إنه سيظل أمامنا التساؤل حول حكمة تقدم
الجن على الإنس في قوله تعالى ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ
أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ
لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۖ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمْ
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا
كَافِرِينَ﴾ [سورة الأنعام: ١٣٠].

وهو مؤد ضرورة إلى انسحاب ما ذكر في شأن آية
الذاريات؛ علها كونه أصلا.

وعلى كلِّ فإن هذا مما تفرضه أوضاع وتصورات
القرآن الكريم.

دلالة حرف العطف الواو

والأمر يعود بالضرورة إلى دلالة حرف العطف الواو؛
ومنه نشأ الخلاف.

ومنه برز البحث عن سبب تقدم ذكر الجن على الإنس؛
كما في آية الذاريات، وكما في غيرها من مواضع أو عكسه في
مواضع آخر.

إذ إن دلالتها عند النحويين على ثلاثة معان:

١- مطلق الجمع.

٢- والترتيب.

٣- والمعية.

والراجع عندهم أنها لمطلق الجمع. ومنه ساغ القول إن
التقديم أو التأخير لمطلق الجمع، مع الاحتفاظ بما للقرآن من
حبكاته، وعطاءاته، وملح، وظلاله.

الفصل الخامس

تفسير الآية السابعة والخمسون من سورة الذاريات

﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ﴾

[الذاريات: ٥٧]

هذا درس بالغ الأهمية، بليغ الدلالة.

ذلك أن قضية الرزق ربما كانت هاجس البشر عامة، ولا يكاد يفلت من جوازبها سوى من أنعم الله عليهم، حتى اطمأنوا إلى رزقه، وحتى صار ذلكم سببا لأن يرزقهم ربهم، وهم في أعالي الجبال!

وليس ذلك ضربا من خيال! فقد توثق أن قوما حفظوا ربهم فحفظهم، وكان من حفظهم لهم، أن قاموا بعبوديتهم لربهم الحق، كما ينبغي لها أن تكون، وكان إذن جزاؤهم أن أعطاهم ورزقهم من حيث لم يحتسبوا، حتى ذكر ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى عند شرح حديث احفظ الله يحفظك

أن الغراب كان يأتي بالطعام كل وجبة للعبد، كما وأن الذئب
وقف حارسا لغنم ولي!

وإذن فكان هذا التصوير القرآني الجميل، في نفي
حاسم لقضية قد تجول في النفوس الضعيفة، وكأنما تحسب
ذا قيمة!

فأنى لله تعالى أن يريد منهم رزقا وأنى له سبحانه أن
يبتغي منهم طعاما؟

إن له تعالى، وهذا محال، وإن لعبيده، وهو وحده مالك
خزائن كونه كله. بل، ولم ذلك، أو غيره، وهو الغني؟

وكان من حسن التدبير أن يستريب أحد أنه تعالى مريد
لشيء من ذلك؛ لغناه المطلق، ولكفالاته عبيده.

ولكن ولأنه تعالى يعلم أهواء سفلية، أن يعتمل
بخاطرها ذلكم خلل، وأن يسارقها في داخلها ذلكم خلل،
فنفاه ابتداء.

ولكنه لدليل علم مطلق لمكنونات النفوس، ودواخل
الألباب، والله ﴿عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾
[الرعد: ٩].

وأؤكد مرة أخرى على هذه المسألة، وأنه تعالى علم علما
أزليا أن قوما سيزعمون سرا أو جهرا خفية أو علانية أنه
تعالى يريد من أحد رزقا، أو يريد من قوم أن ﴿يُطْعَمُونَ﴾.

وعلمه بذلك سبحانه وتعالى كان قمنا أن ينفوه عن
أنفسهم، لو كانوا صادقين، ولما لم يأت ذلكم نفي؛ فدل إذن
على وقوعه منهم؛ فأثبت خيالهم.

ووقوع ذلك من القوم دليل إعجاز إذن، ودليل تحد،
ودليل جهلهم بقدرة ربهم كونه تعالى ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي
الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ
فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا
قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

وقال الله في الحديث القدسي: يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه. وفي رواية: إني حرمت على نفسي الظلم وعلى عبادي، فلا تظالموا^(١).

قال ابن جرير رحمه الله تعالى: لا أريد ممن خلقت من الجن والإنس من رزق يرزقونه خلقي. ولا أريد منهم من قوت أن يقوتوهم ومن طعام أن يطعموهم^(٢).

وليس وراء ذلك من معنى يمثل إضافة لبيانه؛ لغناه تعالى. وليس وراء ذلك من رحمة ترجى بعبده أن تكفل برزقهم جميعا، برهم وفاجرهم مؤمنهم وكافرهم.

وزيادة إيضاح يخدم المعنى ويؤكدده ويفسر القصد ويبينه. ذلك أن معاملات العبيد بينهم البين قائمة على المعاوضات المحضة، وليس استثناء عليها، إلا فيما ندر،

(١) صحيح مسلم: ٢٥٧٧

(٢) جامع البيان، ابن جرير الطبري: ج ٢٧ / ١٧

وبقدر! لكن الله تعالى مع سائر خلقه يعطي بلا منٍّ، ويهب
رحمة وإنعاما منه وفضلا وكرما من لدنه لا عدلا، وإنما
يعاملنا ربنا بحلمه.

تقلب بين رزق وإطعام

قال القرطبي: وقال ابن عباس وأبو الجوزاء رضي الله
تعالى عنهما: ما أريد أن يرزقوا أنفسهم ولا أن يطعموها.
وقيل ما أريد أن يرزقوا عبادي ولا أن يطعموهم^(١).

والآية بنظمها محتملة للمعنيين معا، ولا تعارض؛ ذلك
أنه تعالى لا يريد من عبد رزقا لنفسه، ولا رزقا لغيره، وكذا
إطعاما؛ لأنه:

أولا: هو الكفيل بذلك.

وثانيا: لعجز غيره.

وثالثا: إن الله هو الغني.

(١) تفسير القرطبي، القرطبي: ج ١٧ / ٥٦

التعبير الجامع المانع

وكعادة القرآن الكريم، يتحفنا ربنا الرحمن سبحانه بتعبير قوي لا يبقى من معنى يصور الحالة إلا أتى به؛ ليكون جامعا لأفراده، مانعا لغيره من الدخول فيه.

وذلك من مثل ورود كلمة رزق نكرة بعد نفي ومسبوقه بحرف الجر من؛ لتنفى أي مادة يريد بها الله سبحانه تصلح أو لا تصلح رزقا!

علاوة على تنوين لحق بها ليزيد المعنى ويؤكد.

إثبات صفة الإرادة لله تعالى

والآية تثبت صفة الإرادة لله تعالى. لكن على مذهب أهل السنة والجماعة، القائم على قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فهي من ثم إرادته، لكن لا كإرادة أحد من خلقه. إرادة تليق بخالق مهيم. وإرادة لكل مخلوق في أن تدبيرا لخلقه وقيامه لكونه بانتظام دقيق محكم. ونؤمن بها.

هذا هو غناء ربك !

ونفيه تعالى إرادة رزق أو إرادة إطعام إنما جاء في محله. وتلك من طلاقة القدرة الإلهية. إذ إن كل صانع لصنعه فهو يريد قطعاً كسباً من وراء ذلكم صنيع

وفيه جواب سؤال وهو أن الخلق للغرض ينبيء عن الحاجة، فقال ما خلقتهم ليطعمون والنفع فيه لهم لا لي، وذلك لأن منفعة العبد في حق السيد أن يكتسب له، إما بتحصيل المال له أو بحفظ المال عليه، وذلك لأن العبد إن كان للكسب فغرض التحصيل فيه ظاهر، وإن كان للشغل فلولا العبد لاحتاج السيد إلى استئجار من يفعل الشغل له فيحتاج إلى إخراج مال، والعبد يحفظ ماله عليه ويغنيه عن الإخراج فهو نوع كسب فقال تعالى: { مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا } أي لست كالسادة في طلب العبادة بل هم الرابحون في عبادتهم، وفيه وجه آخر وهو أن يقال هذا تقرير لكونهم مخلوقين للعبادة، وذلك لأن الفعل في العرف لا بد له من منفعة، لكن العبيد على قسمين قسم منهم يكون للعظمة والجمال كماليك الملوك يطعمهم الملك ويسقيهم

ويعطيهم الأطراف من البلاد ويؤتيهم الأطراف بعد التلاد، والمراد منهم التعظيم والمثل بين يديه، ووضع اليمين على الشمال لديه، وقسم منهم للانتفاع بهم في تحصيل الأرزاق أو لإصلاحها فقال تعالى إني خلقتهم فلا بد فيهم من منفعة فليتفكروا في أنفسهم هل هم من قبيل أن يطلب منهم تحصيل رزق وليسوا كذلك، فما أريد منهم من رزق، أو هل هم ممن يطلب منهم إصلاح قوت كالطباخ والخواني الذي يقرب الطعام وليسوا كذلك فما أريد أن يطعمون، فإذا هم عبيد من القسم الأول فينبغي أن لا يتركوا التعظيم^(١).

لكن الله تعالى غني فلا حاجة له إلى شيء من ذلك، ولأنه تعالى قال ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

والحاجة دليل نقص، والله تعالى لا حاجة له. لأنه واهب لسائر النعم، ورافع كل النقم.

(١) تفسير الرازي: ج ٢٨ / ٢٣٤

عموم الرزق

والرزق عام يشمل المطعومات، كما يشمل المشروبات؛
كما قال تعالى ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ
مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ
يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۖ فَشَرِبُوا
مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ
قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ
يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئْتَهُ
كَثِيرَةً بإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]

فألحق المشروب وهو الماء بالطعام؛ ومنه دل على أن
الشراب يقتات به كما الطعام. ومنه أن الشراب أعم فائدة من
الطعام. ألم تر أن المضربين يضربون عن الطعام لا الماء؟!
ألم تر أن ماء زمزم طعام وشرب وشفاء معا؟!
ولحديث أبي ذر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم

قال في ماء زمزم : " إنها مباركة إنها طعام طعم(١). زاد الطيالسي (٦١) في رواية له : " وشفاء سقم.

ذكر الخاص بعد العام

ودل على اتساع مفهوم الأرزاق، ودخول كل ما نفع رزقا، ومجيء كلمة رزق عامة، والطعام جزؤه، وهو من قبيل ذكر الجزء بعد الكل، أو الخاص بعد العام.

ويسند ذلك إليه تعالى ديانة؛ لأنه صاحب كل فضل ولأنه ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۚ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۚ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٤٠]

وما أوسع فضله على عبده؛ وإذ إنه تعالى ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [آل عمران: ٧٤].

ورغمه فإنك واجد قوما يعبدون غيره تعالى!

هل يطلق الرزق على ما نفع فقط؟

ومن مליح قولٍ إن مادة الرزق محصورة فيما نفع، مقصورة على ما صلح، حلالا كانت أو حراما؛ كما قال: الرزق: على لفظ المصدر: ما رزقه إياه، والجمع أرزاق^(١). والأرزاق نوعان: ظاهرة للأبدان كالأقوات، وباطنة للقلوب والنفوس كالمعارف والعلوم^(٢).

وذلكم تفاؤلا بمعناها واستشرافا لفحواها.

والرزق عند أهل السنة والجماعة يعم ما ينتفع به حلالا كان أو حراما. كما قال القرطبي: والرزق عند أهل السنة ما صح الانتفاع به حلالا كان أو حراما، خلافا للمعتزلة في قولهم: إن الحرام ليس برزق لأنه لا يصح تملكه، وإن الله لا يرزق الحرام وإنما يرزق الحلال، والرزق لا يكون إلا بمعنى الملك^(٣).

(١) لسان العرب، ابن منظور: ج ١٠ / ١١٥

(٢) المرجع السابق: ج ١٠ / ١١٥

(٣) تفسير القرطبي، القرطبي: ج ١ / ١٧٧

قالوا: فلو نشأ صبي مع اللصوص، ولم يأكل شيئاً، إلا ما أطعمه اللصوص، إلى أن بلغ وقوي صار لصاً، ثم لم يزل يتلصص ويأكل ما تلصصه إلى أن مات، فإن الله لم يرزقه شيئاً، إذ لم يملكه، وإنه يموت ولم يأكل من رزق الله شيئاً.

وهذا فاسد، والدليل عليه أن الرزق لو كان بمعنى التملك لوجب ألا يكون الطفل مرزوقاً، ولا البهائم التي ترتع في الصحراء، ولا السخال من البهائم، لأن لبن أمهاتها ملك لصاحبها دون السخال.

ولما اجتمعت الأمة على أن الطفل والسخال والبهائم مرزوقون، وأن الله تعالى يرزقهم من كونهم غير مالكين علم أن الرزق هو الغذاء، ولأن الأمة مجمعة على أن العبيد والإماء مرزوقون، وأن الله تعالى يرزقهم مع كونهم غير مالكين، فعلم أن الرزق ما قلناه لا ما قالوه. والذي يدل على أنه لا رازق سواه قوله الحق ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۖ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [سورة
الذاريات: ٥٨]. وقال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ
رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَابٍ
مُبِينٍ﴾ [سورة هود: ٦]. وهذا قاطع... إلا أن الشيء إذا كان
مأذونا له في تناوله فهو حلال حكما، وما كان منه غير
مأذون له في تناوله فهو حرام حكما، وجميع ذلك رزق^(١).

والرزق يراد به شيئان:

أحدهما: ما ينتفع به العبد، والثاني: ما يملكه العبد.

فهذا الثاني هو المذكور في قوله تعالى ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا
رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا
أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾
[المنافقون: ١٠]. وهذا هو الحلال الذي ملكه الله إياه.

وأما الأول فهو المذكور في قوله ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي
الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ
كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦]. وقوله صل الله عليه وسلم:

(١) تفسير القرطبي، القرطبي: ج ١ / ١٧٧

إن روح القدس نفث في روعي، أن نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها، وتستوعب رزقها، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب، ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله، فإن الله تعالى لا ينال ما عنده إلا بطاعته (١). ونحو ذلك، والعبد قد يأكل الحلال والحرام فهو رزق بهذا الاعتبار لا بالاعتبار الثاني، وما اكتسبه ولم ينتفع به هو رزق بالاعتبار الثاني دون الأول (٢).

وقال العلامة محمد السفاريني في منظومته: الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية: (٣).

والرزق ما ينفع من حلال	أو ضده فحل عن المحال
لأنه رازق كل الخلق	وليس مخلوق بغير رزق
ومن يمت بقتله من البشر	أو غيره فبالقضاء والقدر
ولم يفت من رزقه ولا الأجل	شيء فدع أهل الضلال والخلل

(١) صحيح الجامع، الألباني: ٢٠٨٥

(٢) مجموع الفتاوى، ابن تيمية: ج ٥ / ٢٦٢

(٣) شرح العقيدة السفارينية، ابن عثيمين ج ١ / ٣٢٣

دلالة تكرار الفعل أريد

بيد أن تكرار الفعل ما أريد موجّ بغناه تعالى أيما
إِحاء.

و ورود البيان بالجملة الفعلية مرتان تكرار أفاد
المعنى ووضحه وزانه وبينه وأبهاه؛ لفتا للأنظار، وتأكيدا
لغناه، وتضمينا لاستغنائه تعالى أيضا. وهو ما يضيف إلينا
معاشر المسلمين محبة لربنا ورضا عنه تعالى سائلين إياه
رضاه عنا كما قد عنه رضيانا.

والتكرار بالجملة الفعلية؛ دليل استمرار الغنى
والاستغناء، فهما ثابتان دوام الألوهية، وقائمان بقاء
القيومية، ولا تنفك ألوهية، ولا تنصرم قيومية!

وذلكم تذكير للمؤمنين؛ ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم،
وهو صدق برهان ودليل بيان؛ قطعاً لمحجة المعارضين،
عساهم أن يتوبوا، وليتهم أن يؤبوا.

دلالة التعبير بصيغة الإفراد

غير أن التعبير بصيغة الإفراد للفعل أريد، ينطلق إلى آفاق واسعة لا يحدها حد ولا يقيدها قيد، في بيان عظمة الألوهية، والإفراد بالوحدانية، والتمكن بالربوبية.

وهو ما يضيفي على النص جمالا، وهو ما يسبغ عليه تعالى جلالا، فاستواؤه على عرشه؛ قمنُ به إلها ، كما يليق بجلال وجهه.

أعود لأقول: ولأن المقام مقام إبراز لسلطانه وبيان لعظمته وإفراد لألوهيته وإشاعة النص لهذه المعاني الكريمة - كرمه تعالى - يبينها أنه تعالى عندما يريد ذلك يكون التعبير بضمير المتكلم الواحد كما في هذا الموضع وغيره من كتابه تعالى كما قال تعالى ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٧]. وقال تعالى ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا ﴾ [سورة النساء: ٢٧].

ويبينه أنه تعالى في معرض البيان عن معان الرحمة واللفظ والمعونة يكون التعبير بضمير جماعة المتكلمين نحو قوله تعالى ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص: ٥]. وفي كل بيان لجلال وجهه وعظيم سلطانه سبحانه.

دلالة النفي مرتان

ومجيء الفعل أريد مرتان، وكلتاها منفيتان، أكثر دلالة في الاستغناء، وأعظم بيانا في الغنى، وأظهر لحاجة الغير، كل الغير، لمعين واحد، وهو الله تعالى!

إذ إن الكل له مربوبون، شعروا أم لم يشعروا، علموا أن لم يعلموا، آمنوا أو لم يؤمنوا، ففطرته تعالى أنا جميعا له مربوبون، وخلق له جميعا، أنا له مدعونون، وبه وحده قائمون سبحانه.

دلالة التعبير بميم الجمع

والتعبير بميم الجمع في قوله تعالى منهم كاشف عن غناه عن العالمين كل العالمين! لأنه تعالى قال ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٧]. وقال تعالى أيضا ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [فاطر: ١٥].

إضافة كشف لا إضافة إنشاء! وهذه إضافة أضفت على النص عظيم بيان؛ كونه كاشفا عن حقيقة. لا كونه منشئا لها، والكشف يزيد اليقين ويثبت الأقدام، ومنه نفيد التذكرة؛ للاعتبار، ونفيد الموعظة؛ للاستبصار.

والنفي الوارد في الفعل بالأداة ما النافية معجز كذلك؛ ذلك لأنه تعالى ليس مريدا من أحد رزقا لا حالا في ولا استقبالا الدنيا، ولا مالا في الآخرة.

بل منه المن كله عاجلة وآخرة!

ولماذا النفي بأداة النفي (لا) ؟

وجاء البيان لأجل ذلك منفيًا، وجاء النفي له بأداة النفي ما، ولم يرد النفي بأداة النفي لا؛ لدلالاتها على نفي الاستقبال! مما يوقع في حيرة!

وربنا تعالى يرفع الإشكال، ويزيد البيان سبحانه.

وكعادة الكتاب المجيد في تضافر الضمائر على اختلافها؛ إظهارا للالتفات، وبيانًا للاهتمام.

وتلك طريقة القرآن العظيم، في تصويره! وهذه بدائعه في أخذه القلوب! وجذبه للألباب!

دلالة التقبّل بين الضمائر!

ومنه الانتقال من ضمير المتكلم الواحد؛ في قوله تعالى ﴿ مَا أُرِيدُ ﴾، إلى ضمير المتكلمين في قوله تعالى ﴿ مِنْهُمْ ﴾، كذا مرة أخرى في قوله تعالى ومنتقلا من ضمير المتكلم الواحد ﴿ وَمَا أُرِيدُ ﴾، إلى جماعة الغائبين في قوله تعالى ﴿ يُطْعَمُونَ ﴾.

ونفيده في كلامنا؛ إحكاما لبياننا.

بلاغة وحسن بيان: ويبد أنه حسنت الإشارة إلى مجيء
الضمير في المرتين مستترا وجوبا؛ وللعلم به تعالى ابتداء،
وحين قد نصب فطرة خلقه على العلم والعرف به تعالى!

هل الله تعالى يأكل؟!

ولئن قيل كيف أتى النص بالفعل ﴿يُطْعَمُونَ﴾
ومركوز في الفطر أنه تعالى لا يُطْعَم؟!

قيل: ألم تر أن الله تعالى قال في الحديث القدسي: إن الله
عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم، مرضت فلم تعدني،
قال: يا رب، كيف أعودك وأنت رب العالمين؟! قال: أما علمت
أن عبدي فلانا مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته
لوجدتني عنده؟ يا ابن آدم، استطعمتك فلم تطعمني، قال:
يا رب، وكيف أطعمك وأنت رب العالمين؟! قال: أما علمت أنه
استطعمك عبدي فلان، فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته
لوجدت ذلك عندي، يا ابن آدم، استسقيتك، فلم تسقني، قال:
يا رب، كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟! قال: استسقاك

عبدى فلان فلم تسقه، أما إنك لو سقيته وجدت ذلك
عندي(١).

وكذا فالإطعام أدنى ليشمل الأعلى.

وأخلص لأقول: إن الآية جاءت إبطالا لعلل القوم
ومزاعمهم في أعمالهم البينية غير الخالية من مثلها علل!
ونفى لما بينهم من نفع معاوضة تنزه الله تعالى عن كل لغناه
واستغنائه معا. كما قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ
الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]
فإنه سبحانه غنى عن الرزق، بمعناه الواسع. وعن كل.

الفصل السادس

تفسير الآية الثامنة والخمسون من سورة الذاريات

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات:

٥٨]

وقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾

[الذاريات: ٥٨]. يبينه قول ابن جرير رحمه الله تعالى: إن الله

هو الرزاق خلقه المتكفل بأقواتهم ذو القوة المتين^(١).

وأشار إلى الاختلاف حول قراءة ﴿ الْمَتِينُ ﴾ ما بين

كونه مرفوعاً؛ باعتباره صفة ل ﴿ ذُو ﴾ وما بين كونه

مجروراً؛ تأسيساً على اعتباره نعتاً ل ﴿ الْقُوَّةِ ﴾. ورسم

المصحف جاء رفعاً.

(١) جامع البيان، ابن جرير الطبري: ج ٢٧ / ١٧

استشكال وجوابه

واستشكل كيف يكون لفظ المتين، وهو مذكر صفة
للفظ القوة، وهو مؤنث!

وأجيب بقول الشاعر:

لكل دهر قد لبست أثوبا من ربطة واليمنة المعصبا.

إذ جعل المعصبا وهو مذكر نعتا لليمنة وهو مؤنث.

وقول العرب معتبر؛ إذ قد نزل القرآن بلغتهم، وأشارت
إلى أن رسم المصحف رفعا. إذن هو نعت ل ﴿ذُو﴾.

المناسبة بين الآيتين

وهذه الآية لصيقة الصلة بالتي قبلها؛ ذلك لأن الله تعالى كونه الرزاق؛ فينفي ضرورة إرادته رزقا من أحد؛ لأنه قائم برزق غيره، ويمتنع رزق غيره له تعالى؛ بناء على هذه المقدمة السلسلة؛ الحاملة لمعاني التفرد، والموجبة لدلالات الغنى والاستغناء لله تعالى؛ وذلك كله لأنه تعالى بائن من خلقه في كل.

ومن لمحات القرآن الكريم ذلك الالتفات من ضمير المتكلم المستتر وجوبا في الآية السابقة ﴿وَمَا أُرِيدُ﴾، إلى ضمير الغائب في الآية محل الكلام ﴿هُوَ﴾؛ إبرازا لمعاني الكتاب المجيد، وربط الأذهان به، وإذعان الجوارح له بالتبع؛ ذلكم لأن البيان البليغ يشحذ النفوس، ويستدعي الطاقات والألباب.

قراءتان

على أنه قد وردت قراءة عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، مفادها (إني أنا الرازق).

والتعويل على القراءة المشهورة في المصحف، فيبرز تبرها؛ خشوعا للرحمن؛ ولأن من كان إلها - بحق - فهو رزاق تبعا.

وتلك طلاقة قدرته، ودلائل قيوميته- تعالى- ليستقيم الأمر بالعبادة، مع إيجابه الرزق على نفسه سبحانه، وليس غيره تعالى بفاعل ذلك، ولا قادر عليه.

وليس أدل على كونه إلها أحق بالعبادة دون سواه من شهادته تعالى على نفسه بأنه ﴿الله﴾، نصا في الآية الكريمة محل الكلام؛ فتأله القلوب، وتزكو بذكره النفوس.

﴿الرَّزَاقُ﴾: وذكر ﴿الرَّزَاقُ﴾ تاليا لها مفيد لهذا المعنى، أيما إفادة؛ إذ لم يأمر الناس بعبادته، ويتركهم

يبحثون عن رازق سواه! وذلك فضله، وهو عدله، ومنه،
وكرمه تعالى.

دلالة التوكيد: وتوكيد الآية بالحرف الناسخ المفيد
للتوكيد ﴿إِنَّ﴾ يجعلها حافلة بمعاني الإكلاء من لدنه تعالى
لعبيده بحيث يصيرون مطمئنين غاية الاطمئنان إلى عناية
رب كريم بعباده رفيق بهم؛ ولأنه قال ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ
عَبْدَهُ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۚ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ
فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [سورة الزمر: ٣٦].

ومن ثم فلا يبقى لأحد عذر يلوذ به؛ للتحلل من رقة
عبادته لله تعالى، أو مسوغ للانفكاك عن ربة عبوديته له.
ونفيد كفاية الأرزاق ضمان الطاعة.

والآية كلها جملة واحدة! لكنها دلالات! وهي براءة
الكتاب الكريم وإيحاءاته وتصويراته وإيجابياته ونظمه
البليغ وتفرد البديع عطاء هادر، وسبحانه من قائل ﴿
وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۚ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة التوبة:
٤٠]. مبنى ومعنى ودينا.

دلالة الضمير المنفصل ﴿هُوَ﴾

وبلاغة صيغة المبالغة: ومجيء نظم الآية بالضمير المنفصل ﴿هُوَ﴾؛ تقرير لكونه تعالى الرزاق لا سواه. ومناسب أيما مناسبة لصيغة المبالغة في المشتق ﴿الرَّزَّاقُ﴾. وذلك التناغم بينهما مع ما سبقه من توكيد؛ يشي بظلال العناية والإكلاء الربانيين الحانيين، كما يشيع في جو الآية هدوءاً وتفاعلاً وتوكلاً على رب كريم، حتى ما ينصرف العبد إلى عبادة مولاه راضياً مرضياً تملؤه السكينة والاطمئنان إلى رزق كفاه إياه مولاه.

خمسة أسماء حسنى !

والآية على قصرها تضمنت كثرة كاثرة من أسمائه
تعالى الحسنى وصفاته تعالى العلا.

وذلك؛ ليناسب هالة كبيرة، هي بعث الطمأنينة في
نفوس العبيد إلى ربهم الرحمن سبحانه، والتأكيد على
قيوميته وإلهيته وربوبيته تعالى. فكلها أسماء حسنى ﴿الله
- الرَّزَّاقُ - ذُو الْقُوَّةِ - الْمَتِينُ﴾ مع دلالة الضمير المنفصل
﴿هُوَ﴾ عليه تعالى. وصفات علا فإنه تعالى ذو (القوة ،
ومنه يفاد اسمه تعالى الحسن: القوي).

من بلاغة البيان

ولحة في النظم مجيئه بلفظ ﴿ الْقُوَّة ﴾ ، دون القوي ،
بذلك التناسب بين (﴿ ذُو ﴾ و ﴿ الْقُوَّة ﴾ ؛ إشعارا بقوته
وتنويها بقدرته.

وذلك لا تجده بين ﴿ ذُو ﴾ و (القوي).

وتلك للقرآن الحكيم عادته؛ كما في قوله تعالى ﴿ ذِي
قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ [سورة التكوين: ٢٠].

وهذه طريقته كما في قوله تعالى ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ
أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١].

فمع القوة لا حظنا مجيء ذو ، ومع القوي رأيناها لا
وجود لها. وهي حكمة ودلالة.

بيان لازم: بيد أن بيانا لازم؛ مؤداه: أن فرقا بين القوة
كصفة، والقوي كاسم.

والمعلوم أن التعبير بالاسم أقوى منه بالصفة؛ وقد جاء في الآية بهذا النظم هاديا بديعا قولاً بينا بليغاً؛ حكمة بالغة، وحجة دامغة، اتسم بها كلام ربنا الرحمن أبداً، وبحيث كانت صفة مميزة له، لصيقة به، وجب الكشف عنها، ما أمكن، وتجليتها للناظرين.

ذلك أن المقام مقام بيان إكلاء، وبعث الطمأنينة في النفوس، إلى رزقها، حيث قد تعبدت ربها، وأوقفت ذات نفسها لبارئها؛ ومنه ناسب لفظ القوة وصفاء، وكان من شأنه عدم التعبير بالقوي.

وذلك أنه حيثما ورد في الكتاب، إنما ورد في مقام العزة الموجبة له تعالى، كونه قويا سبحانه؛ كما قال تعالى ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٧٤].

والله تعالى كونه الرزاق، فهو كذلكم وحده. وتلك عقيدة المسلمين في ربهم سبحانه.

ومنه فلا يدعى سواه لاستجلاب رزق وما سواه إلا منه تعالى، ولا يشرك أحد معه في ذلك؛ كما قال تعالى ﴿ وَلِلَّهِ

حَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾

[المنافقون: ٧]. وذلكم من موجبات العبودية له تعالى.

ولأنه الرزاق؛ فهو كثير الرزق؛ ولهذا قال تعالى ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [هود: ٦]. منذ أن خلق، وإلى أن يرث الأرض ومن عليها.

ويرزق ربنا تعالى كفاء، ويرزق سبحانه واسعا، حسب الإيمان، والطاعة، ودرجات الابتلاء، وموجبات محبته لعبده، ومدى إحسان اتخاذ العبد من أسباب شرعها الله تعالى.

رحمة ربنا

وسبق أن بينت وأعيد أنه تعالى يرزق عبده كلهم مؤمنهم وكافرهم! رحمة بكلٍ ولطفًا بالجميع؛ لأن ﴿اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩].

وتلك نبذة من لطفه وذلكم خبر عن رحمته؛ كيما لا يقال: ها هو الله قد رزق من عبده وحده! ومن ثم تفتح أبواب المماحكات والادعاءات والافتراءات! فأوصدها الله تعالى بذلكم عموم! خاصة مسألة الرزق!

دلالة ﴿ذُو﴾: ومجيء كلمة ﴿ذُو﴾؛ لتلقي بظلال القوة، وما تحمله من معانيها في الشدة غايتها وكمالها، كل حين.

وهي قوته اللائقة بإلهيته وسلطانه وجبروته وعزته. ولا يعتورها ما يعتور قوة غير من الأغيار. من وهن، وما يجري على غيره من قانون التدرج.

وحبكتها وجرسها وموسيقاها حاملة لعظيم شأوها وكريم شأنها؛ لأنه ﴿ذَلِكُمْ اللهُ رَبُّكُمْ ۖ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَلَقُ

كُلُّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾
الأنعام: ١٠٢.

﴿الْمَتِينُ﴾

والمتين هو الله تعالى. وكفى بورودها في هذا المكان من الآية؛ لتؤدي معاني السمو، وآيات العلو، في القدرة العظيمة؛ عظم المتسمي بها، وهو الله تعالى.

وكان من عظيم شأنها أن كان ﴿الْمَتِينُ﴾ اسما من أسمائه سبحانه. ومن ثم فهو اسم حسن منها، يؤدي معناه حيثما وضع في مكانه المناسب من أي القرآن.

دلالة ﴿الْمَتِينُ﴾: والمتين هو الشديد. وقد سبقت الإشارة إلى مجيئه بقراءتي الرفع نعتا؛ ل ﴿ذُو﴾. والجر وصفا ل ﴿الْقُوَّةُ﴾.

ومن جميل أنه يؤدي معاني التناهي في الشدة، وعلى أي القراءتين جاء، ويظل متفردا بأدائه كاسم من أسماء الله الحسنى سبحانه. في ذات الوقت. وهي من طلاقة التعبير في الكتاب المبين؛ لأنه مبين، وحسبنا!

كثرة المساس تذهب الإحساس!

وقضية الرزق، كغيرها من المسائل، يكاد لا يشعر بها القوم. وهم مغمورون رزقا، كل حين، بإذن ربهم.

وكما قالوا: كثرة المساس تُذهب الإحساس!

وإلا فإنه تعالى رزاق عبده أنواعا شتى، ورزاق غيره صنوفا تترى. وعلى مر الدهر والزمان والأيام! ولا تغيض خزائنه، ولا يَمُنُّ ربنا تعالى على أحدنا.

وكم للمرء أن يقف مشدوها؛ لتأخذه عبْرُ أمام ذي القدرة القدير؛ وهو يرزق ثمانية مليارات من البشر! في آن واحد! يأتيهم رزقهم رغدا، من كل مكان! فأَيُّ خزائن هي كافية؟! وأية موارد هي وافية؟! وسبحان من عدهم عدا؛ ليكيفهم رزقهم، ويكلأهم عيشهم!

وقل مثل ذلك وزيادة في أعداد ما خلق من جن! وغير جن، ولطالما كانت له روح، أو كانت له مادة حيوية!

وقل مثله أو زده في ممالك الحيوانات العظيمة.

وأنقذك أخي القارئ الكريم إلى هذا التقرير لتقف
خاشعا مسبحا أمام عظمة الخالق العظيم، ونحن نأكل
متربعين، على أرائكنا، وربنا الرحمن سبحانه ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ
فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة
الرحمن: ٢٩].

حيث: كشفت دراسة علمية حديثة عن أن ٩٠ % من
أنواع الكائنات الحية في العالم لم تكتشف أو توصف أو
تصنف بواسطة البشر بعد.

وقد رت الدراسة التي أجراها باحثون كنديون عدد
أنواع الكائنات الحية ب ٨.٧ مليون نوع.

تمكن العلماء من تطوير أسلوب جديد لتقدير إجمالي
أنواع الكائنات في الكون ونشروا نتائج دراستهم في صحيفة
"بلوس بيولوجي" العلمية في نسختها الإلكترونية أمس.

يقول روبرت ماي أستاذ علم الحيوان بجامعة
أوكسفورد في بحث منفصل في نفس النسخة: "إن مدى
جهلنا بعدد الكائنات الحية على الأرض اليوم مفزع للغاية بل

إن ذلك الجهل يزداد عند الحديث عن عدد الأنواع التي يمكن أن نفقدها من تلك الأنواع التي لا تزال توفر خدمات للنظام البيئي تعتمد عليها البشرية بشكل مطلق". كانت التقديرات السابقة لأعداد أنواع الكائنات الحية تتراوح بين ثلاثة إلى مئة مليون نوع. الدراسة التي أجريت في جامعة دالهاوزي بهاليفاكس كندا قدرت أن 86% من كل الأنواع البرية و 91% من كل الأنواع البحرية لم تصنف بعد. و قدرت عدد أنواع الكائنات التي تنتمي لعالم الحيوان ب 8.7 مليون نوع، والنباتات ب 298 ألف نوع والفطريات ب 611 ألف نوع والحيوانات الأولية ب 36400 بالإضافة إلى 27500 نوع مما يعرف بالخلايا بدائية النوي والتي تضم الطحالب والعوالق وغيرها.

وأضافت الدراسة أن نحو 7% فحسب من الفطريات و 21 بالمائة من الحيوانات هي التي تم تحديدها، مقارنة ب 72% من النباتات. المنهج الذي اعتمدت عليه الدراسة استثنى الميكروبات والفيروسات وتضمن هامش خطأ معياري يقدر ب 1,3 في المليون.

كما قدرت الدراسة أن هناك ٢.٢ نوعا من الكائنات البحرية والباقي كائنات برية.

وقال أستاذ علم الأحياء البحرية وأحد المشاركين في وضع الدراسة بوريس ورم إن الأرض نظام يتكون من ملايين الأجزاء الحيوية وكثير منها يختفي بشكل منتظم^(١).

قلت: وكم لنا أن نتخيل أعداد أفراد كل نوع مندرج تحت نوعه من هذا الملايين من الأنواع؟! وكم لنا أن نتخيل كيف رزقهم خالقهم وأعد لهم رزقهم وساقه إليهم كل حين؟! سبحانه!

الفصل السابع

تفسير الآية التاسعة والخمسون من سورة الذاريات

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِّثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [الذاريات: ٥٩]

بين يدي الآية

وقوله تعالى ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِّثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [الذاريات: ٥٩]. قال ابن جرير: فإن للذين ظلموا من عذاب الله تعالى نصيبا وحظا نازلا بهم كما نزل بأصحابهم الذين مضوا من قبلهم من الأمم على مناهجهم من العذاب فلا يستعجلون به^(١).

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبري: ١ / ٤٤١

وقال القرطبي: وقال ابن الأعرابي: يوم ذنوب أي
طويل الشر لا ينقضي^(١).

وذنوب أي: وافر شعر الذنب. ويوم ذنوب: طويل
الذنوب لا ينقضي، يعني طول شره. وقال غيره: يوم ذنوب:
طويل الشر لا ينقضي، كأنه طويل الذنب^(٢).

والآية إذن ترسم صورة الرعب كله أمام كل ناكص
وتجاه كل متمرّد على منهج الله تعالى. وذلكم كيما يختار
عاقل طريقه، وليسلك فهيم سبيله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ
بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ
عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢].

وأولو البصائر يعرفون طريقهم، وذوو النهى يدركون
دربهم، ويأخذون معنى الآية جدا لا هزلا، حقيقة لا وهما،
فيشملون عن ساعد جدهم.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٧ / ٥٧

(٢) لسان العرب، ابن منظور: ج ١ / ٣٩٠

ذلك أن استحضار هذا التصوير القرآني للمشهد
طولا، وكيف وهم يحملون دلو عذابهم، على ظهورهم؛
ليعيشوه، طيلة مكثهم، لهي صورة ترسم في الوجدان رعدة،
وهي لوحة تثير في النفوس رهبة؛ تدفع العقلاء إلى الحق
دفعاً، وتسوق النبهاء إلى الهدى سوقاً، ليضعوا عن كواهلهم
رجس الإشراك، مهتدين الى كل سبيل للفكاك.

والآية وكأنها تشخص وصفا ماثلا لهؤلاء الظالمين؛
ردعا، وتبرزهم في صورة مجسمة تخافها النفوس الزكية، أن
تكون كونها، أو أن تصير صيورتها.

وهي طريقة القرآن الكريم في التصوير للحدث؛ ليبدو
في أشد ما يمكن من مشاهد التأثير؛ ليأخذ بتلابيب القلوب إلى
ربها، وليمهد للنفوس سبيلها إلى خالقها سبحانه.

شؤم الظلم

والظلم كرية، وتممته الفطر السوية، ويكون في أشد
أحواله؛ يوم أن يشرك بالله تعالى، وهو الخالق!
وكان كافيا تمثيلهم وكأنهم مالكون كل ذنوبه، وبما
يفيضة حرف اللام من اختصاص كل ذنوب بصاحبه!
وكأنما وقد أعد لهم إعدادا؛ كما يقاس الثوب على
لابسه؛ لتعطي معنى النكال، لكل ناكل؛ ليكون الجزاء من
جنس العمل.

وهي صورة ترسم معاني النفرة من الظلم بأسره.
وحقيق بالقرآن ذلكم × ليؤدي وظيفته في الردع،
ولتقويم الناس على درب ربهم الحق سبحانه.
فإنهم عليه ماكثون، وهم به مستمسكون.
وهو درس للعاملين في حقول الدعوات، أن يتخبروا من
الأسلوب الرادع في البيان؛ ليأطر القوم على الحق أطرا. وهي
واقعة حال يقدرها العامل.

وذكر الظلم في هذا الموضع؛ وكأنما جاء وصفا لحالة قائمة؛ ذلك أنه تعالى لما حصر خلقه للجن والإنس، كونهم له عبيد وحده.

وكانه تعالى يبين أن الناكص عن هذا المنهج المرسوم قد ظَلَمَ! أي أشرك بانحرافه عن أصل وظيفته المخلوق لها قصرا ابتداء.

وبانتهاجه ذلكم طريقا؛ يكون من الذين حق أن يكون لهم ذنوب!

وامتلاك ما له نفع سائغ عقلا، ومقبول شرعا، ومحمود فطرة، كمن يمتلك عسلا، قال عنه ربنا تعالى ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٩].

لكن من يمتلك ذنوب عذابه حاملا إياه بنفسه! هذا ما توجبه شفقة عليه! وأيما هي شفقة؛ لأنه أودى بنفسه كلها المهلكة كلها!

وإن قيل: لم؟ قيل: لأنه ظالم! وهو نعت كئيب كآبة
من نعت به!

وإن قيل: وما ظلمه؟ قيل: كما قال مولانا الله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۚ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وهكذا البشرية لما تتيه في ظلماتها؛ لتعيش حياة نكدة؛
بشرکہا، وإن تزيت بلباس الحضارات، وإن تلبست برداء
المودرنات؛ فإنهم وإن هملجت بهم البراذين، وزفرت بهم
البغال، وطئت أعقابهم الرجال، إن ذل المعاصي لا يفارق
رقابهم، يأبى الله إلا أن يذل من عصاه (١).

وأي ذل نتخيله أكبر من حامل ذنوب عذابه فوق ظهره
يروح به ومعه أينما حل، فهو زاده، وإذا ما ارتحل فهو
حامله؟!

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٩ / ٣٠٢

من بلاغة الحذف

وإن قيل: ومن ظَلَمَ؟! قيل: من دلالة حذف المفعول به في الجملة الفعلية ﴿ظَلَمُوا﴾؛ ليعم الظالم نفسه والظالم غيره! ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ وَمَنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥].

فضالم نفسه بشركه، وظالم غيره بإغوائه.

وهذا حديث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن -أو تملأ- ما بين السموات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك، أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها، أو موبقها^(١).

وكل يلقي بالتبعة على صاحبه يوم القيامة، وليس بدافع عنهم شيئاً.

(١) صحيح مسلم: ٢٢٣

بلاغة تقديم خبر إن: ومن نكال محيق بأولاء الظالمين؛
أن تقدم ذكرهم كخبر إن المؤكدة على اسمها ذنوبا؛ ليسبغ
المشهد جوا كله مهابة، ويخيم بظلامه الدامس عليهم، وكأنما
هم تائبون في ظلمات ضلالهم، ويكأنما هم زاجرون لغيرهم
- حالا - ألا يكونوا مثلهم؛ من فرط ما هم فيه، ومن ضنك ما
هم عليه ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ
بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ ۚ
أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٧].

لفتة قرآنية مجيدة!

وإنما لفتة عجيبة من عجائب القرآن الحكيم، ذلك أن الذنوب لما كان هو دلو الماء، وهو بذلك مصدر نعمة ورخاء، وإذا به يستعمل مجازاً تهكماً بالظالمين كمصدر للعذاب والنكال! كما قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

﴿مَثَلُ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾: للاشتراك في
علة الظلم الملازم لهم ضللا، والمتعدي لغيرهم إغواء.

إن هذا تشبيه قائم على المساواة في العذاب؛ لينسحب
حكمه ضرورة على كل ظالم لنفسه مضل لغيره؛ لحديث: من
سن سنة حسنة فعمل بها، كان له أجرها ومثل أجر من عمل
بها، لا ينقص من أجورهم شيئا ومن سن سنة سيئة فعمل
بها، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده لا ينقص
من أوزارهم شيئا^(١).

(١) صحيح ابن ماجه، الألباني: ١٦٩

تاريخ طویل نكد

والآية بنصها العجيب هذا تضعنا أمام تاريخ البشرية الطويل النكد مع دين ربهم وأنبيائهم من قوم فرعون وعاد وثمود، والذين من قبلهم، والذين من بعدهم، إلى وقت كفار مكة، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ لتضعنا أيضا أمام تبعات الدعوة، والعاملين عليها؛ ليهون عليهم أمرهم، ويحتسبوا لذلك عملهم.

وهذه تسليّة لرسولنا صلى الله عليه وسلم، وتسرية لنبيينا صلى الله عليه وسلم، وللدعاة العاملين أيضا.

استدعاء لازم

بيد أن لفظة حَسُنَ إيضاحها؛ ذلك أن كلمة أصحابهم تشير أيما إشارة إلى القواسم المشتركة بين الأمثال، وإن تباعدت بهم أزمانهم، وإن تناءت بهم أماكنهم ومحالهم؛ ليظلوا بذلك أصحابا، وصفا ونعتا! وإن لم يتعارفوا، وإن لم يتساكنوا، وإن لم يتعايشوا؛ وليجمعهم ربهم تعالى، يوم يقول الأشهاد؛ وكما قال تعالى ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ [سورة الصافات: ٢٢].

الفصل الثامن

تفسير الآية الستون من سورة الذاريات

﴿ فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون ﴾ [الذاريات: ٦٠].

بين يدي الآية

وقوله تعالى ﴿ فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون ﴾ [الذاريات: ٦٠]. قال ابن جرير رحمه الله تعالى: فالوادي السائل في جهنم من قيح وصدید للذين كفروا بالله ووجدوا وحدانيته من يومهم الذي يوعدون فيه ن زول عذاب الله إذا ن زل بهم ماذا يلقون فيه من البلاء والجهد^(١).

وقال ابن كثير أيضا : وَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ يعني: يوم القيامة^(٢).

(١) جامع البيان، ابن جرير الطبري: ج ٢٧ / ٢٠

(٢) تفسير ابن كثير، ابن كثير: ج ٤ / ٢٥٥

دلالة فاء العاقبة: وكتوطئة للكلام حول هذه الآية
الكريمة، أنا نلاحظ ورود حرف فاء العاقبة، في ثلاث آيات من
هذا المقطع محل الدراسة والبيان.

وهو ما ينبئ عن تسارع وقوع الأحداث في المقطع؛ مما
يعطيه حركة دائبة، مؤثرة في النفوس، خاصة إذا كان في
تحقق العذاب وقوعا.

العلاقة بين الآيتين: بيد أن رابطا بين هذه الآية
والسابقة. ذلك أن وقوع العذاب المستعجل حسم بنص الآية
السابقة بسبب ظلمهم - وهم ظالمون - لتأتي هذه الآية لتبين
شدة العذاب المحيق بهم لكفرهم - وهم كافرون -. وتثنية
العذاب والنعت موجبان لتبكيتهن؛ لجرم فعلهم من ظلم،
ومن كفر.

وهو شأن كفيل بالردع، وموجب للخوف؛ ألا يكون
أحد مثلهم.

كناية القرآن: والويل كناية عن شدة العذاب المحقق
وقوعه، فضلا عن حقيقته، وهي إضافة أخرى؛ لتنخلع

القلوب من وقع العذاب وشدته، ومن انتظار لأولاء الذين استنكفوا للويل.

وهو مشهد يوجب القيام بتعبيد النفوس لربها؛ دفعا للعذاب، ونيلًا للثواب.

وليس بفاعل ذلك من أحد إلا من امتن عليه ربه بالهدى، ومن سلك به موله سبيل التقى.

فالوادي السائل في جهنم من قيح وصيد للذين كفروا بالله وجدوا وحدانيته^(١).

والويل أى : فهلاك للذين كفروا ، هذا الهلاك سيكون في اليوم الذى توعدهم بالهلاك فيه ، والذى هو نازل بهم بلا ريب أو شك^(٢).

و الآية الكريمة المذكورة على ظاهرها، والويل إشارة إلى شدة العذاب

(١) جامع البيان، ابن جرير الطبري: ج ٢٧ / ٢٠

(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، لسيد طنطاوي، تفسير سورة الذاريات، الآية: ٦٠

ومنه نفيذ التحذير بالعقوبة منعا للتجاوز، وهو من باب الوقاية أيضا؛ ولأنه وكما قيل فإن الوقاية خير من العلاج.

دلالة التخويف والوعيد: فنصب لوائح العقاب للمنتسبين ضامن ولاشك بتقليل المخالفات كما وكيفاً. كما وأن إشاعة ثقافة الثواب في المنظمة موجب لاستجلاب عامل الحفز والطاعة.

ومنه فلو أن قوما قد عقلوا عن ربهم وإن من شأنهم أن ينتهوا مسارعين، وينتبهوا سباقين.

حيثيات الحكم: وذكر كفرهم كموجب لإيقاع العذاب بهم، فيه بيان وجوب ذكر حيثيات الحكم والجزاء؛ كيما تطمئن النفوس إلى صحها الحكم.

كما وأن فيه ردعا ليحذر العقلاء كفرا، ويجتنب الحكماء ظلما.

ثم إن فيه تأكيدا على أهمية فعل العبد واكتسابه. وهو تكريم ولاشك لجنس الإنسان؛ إذ لم يكن مكرها، وإذ لم يكن

مَجْبِرًا، وهذا من موجب تكريمه؛ ومن قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ
كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ
الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [
سورة الإسراء: ٧٠]

وتحقق اقتراف الذنب يحقق سبب إنزال العقوبة؛ فلما
أذنبوا كفرا، حاق بهم العذاب، ولحق بهم النكال. ومساكين
أولاء الذين لم يفيدوا من الإعذار ، أو من أولئك المبعدين من
ربقة العبودية؛ لاستحبابهم العمى على الهدى. وإن ما أجمل
كون العبد سالكا درب ربه، دارجا سبيل النجاة والرشاد،
مجتنبا أهل الغي والفساد.

دلالة ذكر مفردة الكفر: وذكر الذين كفروا موح
لبشاعة الكفر، كما وأنه كاشف أيضا عن ضلال الكافرين؛
لتجنب مصيرهم.

وسلوك العبد طريقه المعبد إلى ربه معلنا مفاصلته
للكفر وأهله في آن.

فاستبشاع الكفر والكافرين مؤذن بإذنه تعالى ألا
 ينحرف عاقل، وألا يعوج لبيب، ولا يتأتى فلاح باجتناب
 أحدهما دون الآخر ؛ كما قال تعالى ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ
 حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ
 مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا
 وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ
 إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ
 مِنْ شَيْءٍ ۚ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝

[الممتحنة: ٤].

دلالة الاسم الوصول: ومجيء الاسم الموصل الذين
 مؤذن باستحضار المشهد؛ كيما يبدو كراي العين! تشنيعا
 وتينيسا.

وهو ما يوجب استنكار ا فوق الاستبشاع؛ إمعانا في
 الإنكار ؛ إذ لا جرم أشد نكر ا من الكفر بالله تعالى؛ لأنه ﴿
 تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ
 الْجِبَالُ هَدًّا ۝ [سورة مريم: ٩٠]

دلالة الفعل الماضي: ولعل مجيء الفعل كفروا بدلالة الماضي؛ لتحقيق كفرهم، وعدم إيمانهم؛ ليقطع إذن باستحقاق الويل!

دلالة حرف الجر اللام: وجاء التعبير بحرف الجر اللام، الموجبة لاختصاصهم بالويل، والتصاقهم به ولصوقه بهم! وكما وأن فيه نوع ملكية ولو من وجه!

وهذا مشهد موجب للوحشة، ومؤذن بالنفرة. يملأ القلوب رعباً من صورته، كما يشيع في الآفاق خوفاً واضطراباً؛ وإذ ما عهد العقلاء يملك أحد منهم ويلاً!

وقوله تعالى ﴿من يومهم﴾: أي مما يحدث لهم في يومهم هذا.

وسواء أكان المقصود بيومهم هو يوم بدر أو يوم القيامة أوهما معاً؛ على ما ذكر القرطبي رحمه الله عند هذه الآية، فإنه يضعنا أمام صورة حية للعذاب الماحق لهم المحيق بهم. ليكون ذلك دافعاً إلى الإيمان، رادعاً للكفران.

ومؤذن أيضا بمجاهدة الكافرين لثنيهم عن كفرهم
لخيرهم وإصلاحا لأرض الله تعالى من الفساد.

ولا فساد أشد من كفر به تعالى.

وكذا التخلية بينهم وبين الناس ليختاروا عن بيئة ما
بين كفر وإيمان.

ومنه ألا تترك آلة الإعلام تبث سمومها والقوم يتفرجون
وجهادهم خير لهم ليعودوا إلى حظيرة الدين كيما يكونوا
إخواننا.

وأؤكد أن طبيعة دين الله وحركته الدائبة تتأبى أن
يترك الناس تواكلا على ما ينتظرهم يوم القيامة. وإلا ما قام
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بغزوة. وإلا ما نصب الله
تعالى لواء قتال. وقد قال تعالى وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً
كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ... [التوبة: 36] وقوله صلى الله عليه
وآله وسلم من حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: (أمرتُ
أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن
محمدا رسول الله ، ويسيئوا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة، فإذا

فَعَلُوا ذَلِكَ ، عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ
الْإِسْلَامِ ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ^(١)

والقتال يكون بضوابطه المبسطة في مظانها من كتب
الفقه المعتمدة عند أهل السنة والجماعة.

دلالة الضمير المتصل: غير أن وسم اليوم بأنه يومهم
التي ترسم وكأنه صك ملكيتهم لذلك يوم! فيه تهديد ووعد
بالوبال الشديد؛ كما عند ابن عباس - رضي الله عنهما - أن
الويل وإد في جهنم يسيل فيه صديد أهل النار^(٢). وقال
أيضا: يقول تعالى ذكره: فالوادي السائل في جهنم من قيح
وصديد للذين كفروا بالله ووجدوا وحدانيته من يومهم الذي
يوعدون فيه ن زول عذاب الله إذا ن زل بهم ماذا يلقون فيه
من البلاء والجهد^(٣).

ويهمنا استحضار هذا المشهد المليء بالرعب والمخافة
والشفقة.

(١) صحيح البخاري ٣٨٥

(٢) تفسير الطبري: ج ١/٤٢٢

(٣) جامع البيان، ابن جرير الطبري: ٢٧ / ٢٠

دلالة الفعل المضارع: ومجيء الفعل يوعدون مضارعاً؛
لبيان استمرار إيعادهم؛ لعلهم ينتهون!

وتبدو بلاغته حين ربطه بالفعل الماضي كفروا فرغم
مضي كفرهم إلا أنه مازال الإيعاد بيومهم؛ تنفيراً من الكفر
،وتبكيّاً للكافرين.

وهذه طريقة القرآن المجيد، في عرضه للمشاهد؛ حتى
تبلغ في التأثير منتهاها؛ لتقشعر منه الأبدان، فتكسبه طاقة
الإذعان.

دلالة المبني للمجهول: ومجيء الفعل المضارع مبنيّاً
للمجهول؛ ليحمل التأكيد على العلم به تعالى، متوعداً
للكافرين، إذ لا يطرأ على ذهن أن ثمة غيره تعالى. فهي
القدرة المطلقة. ولأنه تعالى ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ
عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ
الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمَنُ
الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۗ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا
يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٢ و ٢٣].

ومنه جاءت هذه الإشارة إلى ما يشيع بناء الفعل
للمجهول من تعظيم لائق بجلاله تعالى .

الويل في القرآن

ومن حسن القول إشارة إلى إلماحة في كتاب الله تعالى
لذكر الويل، وأهل الويل. ومنه حسن التنويه إلى شيء من
ذلك؛ ما دمنا قد أطريناه؛ ولطالما كان اهتمام الكتاب الكريم
به .

فالكفر جزاؤه الويل، إذ ليس بعد استتار حق الله تعالى
به ذنبا سواه، ومنه جاء قوله تعالى ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ *
الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ *
وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ [سورة الماعون: ٤ - ٧].

وإذا كان ويل لمن سهى عن صلاته، فما بال من ترك
صلاته؟! وويل لكل مرء بعمله صارفا ولو بعضا من
إخلاصه لغير خالق من عدم سبحانه. وويل لمن منع ماعونا.

ذلك أن الفضل فضله تعالى، فلا يضمن به عن فقير، ولا
يمسك عن مسكين، ولا يقتر به عن ذي حاجة مدقع، أو ذي
عوز مفزع!

وذلكم في كل ما من شأنه فيه نفع للناس من زكاة أو
صدقة أو دلو أو فأس وما شكله؛ وذلك لحديث عبدالله بن
عمر رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أحب
الناس إلى الله أنفعهم للناس، و أحب الأعمال إلى الله عز وجل
سرور يدخله على مسلم، أو يكشف عنه كربة، أو يقضي عنه
دينا، أو تطرد عنه جوعا، و لأن أمشي مع أخ لي في حاجة
أحب إلي من أن اعتكف في هذا المسجد، يعني مسجد المدينة
شهرًا، و من كف غضبه ستر الله عورته، و من كظم غيظه،
و لو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رجاء يوم القيامة،
و من مشى مع أخيه في حاجة حتى تنتهيا له أثبت الله قدمه
يوم تزول الأقدام، [و إن سوء الخلق يفسد العمل، كما
يفسد الخل العسل^(١)].

(١) السلسلة الصحيحة، الألباني: ٩٠٦

وقال تعالى ﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ
لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة مريم: ٣٧]
وذلك حين اختلفت النصارى في أمر نبي الله عيسى عليه
السلام وأنه هل هو الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة!

ومنه قولت تعالى أيضا ﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ
بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمِ أَلِيمٍ ﴾
[الزخرف: ٦٥]. فالظالمون من عذابهم الويل.

وقال الله تعالى ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ
بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا
قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا
يَكْسِبُونَ ﴾ [سورة البقرة: ٧٩]. ولأن جرم الكاذب على الله
تعالى عظيم في ادعاء ما كتبه - كذبا - أنه من عند الله فكان
له الويل.

ولك أن تستحضر صورة يتكرر فيها العذاب بالويل
ثلاث مرات. وهو ما يحمل دلالة على عظيم الإثم وكبر الذنب
وإحاطة الخطيئة.

وقال تعالى ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الزمر: ٢٢]. ولأن أمامهم من شرح الله صدره فذكر فأفلح، ولما لم يراعوا فخاب وخسر!

وقال تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ [ص: ٢٧].

ولأن مجرد خلق الله تعالى للسموات وللأرض مؤذن كونه سببا للإيمان؛ كما قال الأعرابي لما سئل: بم عرفت ربك؟ فقال: البعرة تدل على البعير، والروث على الحمير، وآثار الأقدام على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، أما تدل على الصانع الحليم العليم القدير^(١)؟

ومنه قوله تعالى ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ [الطور: ١١ و١٢]

(١) مفاتيح الغيب للرازي، تفسير سورة البقرة، الآية: ٢٢

ولأنهم خاضوا في لهوهم، وأصروا على لغوهم وكفرهم؛
فوصموا بالتكذيب وجوزوا بويلهم!

وهذا الذي جاء منه التثنية باستحقاقهم عذاب جهنم
ومنه ويلها! وكما قال الله تعالى ﴿يَوْمَ يُدْعُونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ
دَعَا﴾ [الطور: ١٣].

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ
يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [سورة
المطففين: ١ - ٣]. ولما طففوا مكيالهم وأخسروا ميزانهم،
كان لهم ويل!

مناسبة بين سورة الذاريات وسورتي المطففين والهمزة!

بيد أن مناسبة أجول حولها لأكشف مرماها وفحواها،
وأبين معناها ومغزاها.

ذلك أن سورة المطففين كان ابتدائها بذلك الحكم
العاصف، وذلكم العذاب القاصف، ويل لمن طفف كيلا أو
أخسر ميزانا!

وأيضا في قوله تعالى ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ * الَّذِي
جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿[سورة
الهمزة: ١-٣]. لكل همازٍ مغتاب للناس، يغتابهم
ويبغضهم، ولكل لمازٍ يعيب الناس، ويطعن فيهم.

ولا أحسبك تراه إلا متزرا بزي إثمه، ولا تكاد تجده إلا
مكتسيا من غمه؛ لما أصاب قوما، من خير، أو منبسطا لما
نزل بأحد من شر!

فكان الويل حقيقا به عقابا، أو له؛ رادا مخوفا، عساه
أن يؤوب، ولعله أن يتوب.

وقال تعالى ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [سورة
المرسلات: ٣٤]. وذلك ولاشك مقصود قرآني كريم، وتنويه
رباني عظيم، نفيد منه شدة النكال، وعظمة الجزاء، لمن هلك
بإهلاكه نفسه. وغيره كفرًا وشقاقًا من موجبات استحقاق
الويل عافانا الله تعالى من الويل. ونفيد أيضا أن التخويف
بمصائر الهالكين موقظ لفئام من الناس ﴿ لَعَلَّهُمْ
يَنْتَهُونَ ﴾ [التوبة: ١٢].

وسورة الذاريات كان اختتامها بذات الويل عذابا
للكافرين، وعقابا للشاردين .
فهناك ابتداء وههنا اختتام.

وأقول: إن سورة بمجملها يتكرر فيها ذكر الويل بين
الفينة والفينة الأخرى!

وها قد رأيناه كيف كان الويل استحقاق جمع غفير من
الناكسين، ونفر لا قليل من الشاردين، كان قاسمهم المشترك،
سوء طوية، من ذميم خلق، أو رزية من حنق. وكان من كبر
إثمهم وعظيم جرمهم في ذلك كفر بالله تعالى أو إشراك به

معه سواه وهو الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يلد ولم
يكن له كفوا أحد .

وإذا كان للويل هذه المكانة ذكر ؛ إذ ذكره الله تعالى
غير مرة في القرآن العظيم؛ لما له من أهمية، في ردع النفوس،
وزجرها عن اقتراف الآثام، والوقوع في براثن الهلاك
والخسران المبين، إلا أنه يلاحظ ذلك الأدب الجم في الذكر
والإطراء!

بلاغة قرآنية

ذلك؛ أننا وبمجرد السرد لآيات ورد فيها ذكر الويل،
ولمجرد النظر الأولي أو العميق إن شئت فقل: إنك لتجد أمرا
عجبا! ذلك أن الله تعالى لم يسند إعداد الويل له تعالى ابتداء!
وهذه من إلماحات الكتاب العزيز وأدبياته الكريمة كرم
الكتاب ومنزل القرآن معا سبحانه! .

وهو مما يعطي الانطباع العام نحو مشاعر الإيمان
و"التدفق الوعظي" حال تقبل النص، مما يعطيه دفعة قوية
للاستجابة المصاحبة للانقياد والطاعة والإذعان، ذلك أننا
أمام قدرة كريمة على استنهاض قوى الخير داخل النفس
البشرية؛ مما لاءم - بحق - أن يكون المدخل إليها إلماحا
بعذاب، وتصريحا بثواب؛ ليدفعها إلى الانقياد دفعا؛ كيما
تنال شرف العبودية لله تعالى الملك الحق المبين سبحانه.

وهذه طريقة القرآن الكريم في طرح قضايا العذاب
وأدبيات العقاب تلميحا لا تصريحاً في عمومها.

وكما قلت فإن هذه الطريقة البليغة في التأثير لعاملة
عملها في تزكية نفس وإزكاء قلب معاً؛ كيما تكون زادا
لصاحبهما نحو الطريق، متحرراً في الوقت ذاته من ربة
السخرية، أو من تبعة الإكراه على الدين .

بلاغة أخرى

وعلى الجانب الآخر فإني رأيت الله تعالى ربي - سبحانه
- حينما أطرى العذاب بهذه التلميحات بحيث غلب على
ذكرها ذلك التعريض بها دونما إسناد للخالق العظيم. إلا
أنه لوحظ التشديد في ذلك تصريحاً في مثل قوله

تعالى ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المجادلة: ١٥].

وهذا التشديد وذاك التصريح نابع حقيقة من إثم
عظيم وذنب كبير؛ ذلكم أنهم أضافوا إلى كفرهم كفراً آخر
بحيث صار كفراً مركباً.

وهذه من إشارات الكتاب المبين والذكر الحكيم؛ ذلك أن
الإثم يولد أخاه؛ وكما أن الطاعة تتوالد عنها طاعات .

لماذا استحقاق العذاب؟

ولأن الإثم كبير عند الله وعند الذين آمنوا؛ فكان قِمنٌ
إذن أن يصرح بعذاب.

ولبيان ذلك وتجليته نرجع إلى ما قبله من قوله تعالى ﴿

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَّا هُمْ
مِّنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [

المجادلة: ١٤].

إذ كان من عظيم ما اقترفوه نفاق في القلب وموالة
لأعداء الله تعالى في الظاهر، فاجتمع ما في قلوبهم مع مولاتهم
الكفار، كسبب كبير لإيلاهم بالعذاب الشديد؛ ولأن الله تعالى
أعده.

فكان إذن شديدا غاية فيها امتهاننا لهم وذلا لصيقا
بهم.

وانضاف إلى ذلك حلفهم على الكذب، وهم يعلمون،
كذبهم حين يحلفون.

وهي صورة أراها، وكأنها ماثلة أمامي، وهم ظاهرون
على الكذب، متواترون عليه، وهم يعلمون صدق الله في أنهم
كاذبون؛ لأنهم حقا كاذبون.

وهي مهانة وذل وانكسار وخيبة وسوء مصير
ينتظرهم فوق ما أشير إليهم.

وكان وسما عليهم، أنهم كاذبون، ويحلفون على
الكذب، وهم يعلمون! صورة موحشة تنفر منها الفطر
السوية، وتقشعر منها النفوس الأبية.

ذلك لأنه وإن سهل افتراء كذب على مخلوق، ومحاولة
إخفاء ذلك؛ وهو مسكين لا يطلع غيبا، ومن خدعه بالله
انخدع له!

إلا أن قياس رب البريات على هذا لجهل عظيم؛ ذلك لأنه
تعالى ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [سورة
الرعد: ٩].

التنمية البشرية في القرآن الكريم

وأنتهي إلى أن التعريض بذكر العقاب أوفق، وطريقة
سديدة في عمومها ولاشك، نفيدها في أعمالنا، بتلميح العقاب،
وتصريح الثواب؛ إشاعة للاطمئنان والراحة لتقبل القرارات
الإدارية بروح الرضا المؤدي بإذنه تعالى إلى الإصغاء الجميل،
ومن ثم إلى الإذعان الذاتي عن رضا وقبول أيضا.

صحيفة الحالة الجنائية

وجود قواعد خاصة لذوي "صحيفة الحالة" الملية بالمخالفات أمر لازم لزوم ما سبق بيانه ردعا وزجرا وإيلاما.

العلاقة بين بدء سورة الذاريات وختمها

ومرة أخرى، وخاتمة حسن ذكرها. ذلك أن علاقة تبدو جلية بين افتتاح السورة وخاتمتها؛ إذ ذكر في ابتدائها بعض من آياته تعالى، كالرياح والحاملات من سحب تحمل الأمطار والجاريات الميسرة سيرها من سفن وفلك.

وهذه دلالات وموجبات ناهضة أن تكون سببا في اهتداء القوم.

وهي آيات بينات أمام أعينهم أبدا.

ولما لم يكن ذلك؛ فحق أن يكون مآلهم ﴿ فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون ﴾ [الذاريات: ٦٠].

وذكر ألوان العذاب؛ وكما زكُر أوجه النعيم، تعمل
عملها في تحريك القلوب ويقظتها، ولعلها تصحو من غفلتها.
ونفذه إعمالا في لوائح الثواب تشجيعا وتحميسا وتلميحا.
وكذا نصوص العقاب زجرا وتخويفا وتلويحا.

الخاتمة

وفيها مبحثان:

المبحث الأول: أهم النتائج

ولعلي أسطر بعضاً من أهم نتائج البحث بعد أن عايشته حيناً من الدهر، فألفته حتى صرت معه، متآلفاً متأثر
إبائحاته:

١. جواز التولي والإعراض عن أهل العناد بعد أن أسديت لهم النصيحة ووجهت لهم الدعوة .
٢. تبرئة ساحة الرسول صلى الله عليه وسلم من تبعة الملامة؛ كونه أعرض عمن تولى وكفر ، والدعاة من بعده كذلك .
٣. شفقة الدعاة على أقوامهم بتذكرتهم كما نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وإخوانه الأنبياء من قبل عليهم جميع صلوات الله تعالى وسلامه .
٤. ضرورة التذكرة كونها نافعة للمؤمنين شرط ملابتها للموعظة لتلامس القلوب وتؤثر في النفوس.

٥. نفع التذكرة للمؤمنين فيه تنويه بشأنهم؛ إذ للحق يستجيبون وله يذعنون .
٦. ونفعها للمؤمنين يحمل زجرا لغيرهم إذ عهدهم الاستنكاف وطريقتهم التولي .
٧. خلق الله تعالى الإنس والجن لعبادته وتوحيده وحده بلا شريك .
٨. كفالة الله تعالى رزقا للعباد الحاضر منهم والباد؛ وعليهم وحسب توحيده بلا إشراك .
٩. غنى الله تعالى عن سائر من خلق، واستغناؤه قائم به لقيوميته وسلطانه .
١٠. تنزيهه تعالى عن الحاجة إلى الرزق أو الإطعام فهو الرزاق واهب الإطعام .
١١. إثبات الأسماء الحسنى والصفات العلا لربنا الرحمن سبحانه .
١٢. ومن أسمائه الحسنى كما ورد في المقطع محل الدراسة: الله - الرزاق - المتين .
١٣. ملازمة العذاب لأهل الإشراك جزاء شركهم ووصفه بالذنوب تبكيثا لهم وعقابا .

١٤. ربط العبادة بمسألة الأرزاق طمأنة للعبيد إذ تكفل بها رب حميد مجيد .
١٥. حتمية وقوع العذاب على أهل العناد .
١٦. استعجالهم العذاب دليل جهالة واستغلاق معا .
١٧. تحقيق الويل كونه واديا في جهنم أعد للكافرين بالله تعالى رب العالمين .

المبحث الثاني: قائمة بأهم مراجع البحث

- ١- القرآن الكريم .
- ٢- صحيح البخاري .
- ٣- صحيح مسلم .
- ٤- تفسير الطبري .
- ٥- الكشف للزمخشري .
- ٦- تفسير الرازي .
- ٧- تفسير القرطبي .
- ٨- تفسير ابن كثير .
- ٩- لباب النقول في أسباب النزول في أسباب النزول، الدين السيوطي .
- ١٠- روح المعاني للألوسي .

- ١١- التحرير والتنوير لابن عاشور.
- ١٢- أضواء البيان للشنقيطي.
- ١٣- في ظلال القرآن، سيد قطب.
- ١٤- تفسير الشعراوي.
- ١٥- فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية.
- ١٦- شرح العقيدة السفارينية ابن عثيمين.
- ١٧- الموسوعة الفقهية الكويتية .

فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
	بطاقة الكتاب
أ	كلمة المشرف العام لمؤسسة السادة للفكر والثقافة
ج	التعريف بالمؤسسة
1	شكر وتقدير
2	الإهداء
3	إقرار
4	ملخص البحث
6	المقدمة
7	تمهيد
9	مشكلة البحث
12	هذا تاريخنا
13	أهداف البحث
16	أهمية البحث
19	حدود البحث
19	عملي في هذا البحث
22	مصادر البحث
24	خطة البحث
24	الدراسات السابقة
25	منهج البحث
26	الفصل الأول: إطلالة عامة على سورة الذاريات
27	العلاقة بين بدء السورة وختامها

28	بلاغة المطلع
29	العلاقة سورة النازعات وسور القرآن الكريم
29	العلاقة بين اسم السورة وموضوعها
30	مكية السورة
30	المناسبة بين سورة الذاريات وسورة الاحقاف
31	سبب نزول السورة
32	مقاطع السورة
33	أولاً: دلالات من المقطع الأول
34	ثانياً: دلالات من المقطع الثاني
35	ثالثاً: دلالات من المقطع الثالث
38	رابعاً: دلالات من المقطع الرابع
40	الفصل الثاني: تفسير الآية الرابعة والخمسون من سورة الذاريات
41	المعنى العام للآية
50	جمع بين آيتين
52	الفصل الثالث: تفسير الآية الخامسة والخمسون من سورة الذاريات
79	علاقة بين آيتين
80	سؤال وجوابه
87	تقلب القرآن ببيان الذكرى!
90	استشراف الفأل الحسن
91	الفصل الرابع: تفسير الآية السادسة والخمسون من سورة الذاريات
91	أصل مادة الإنس وأصل مادة الجن

93	أصل مادة العبودية
94	براعة سورة الذاريات
94	بيان هام
96	سؤال وجوابه
98	بلاغة أسلوب الحصر
99	دلالة ضمير الفاعل
99	برهان التعظيم لله تعالى
104	حول الفعل المضارع ﴿لِيَعْبُدُونَ﴾
106	بلاغة الضمائر
107	سر اختيار لفظ العبودية
108	حكمة تقديم الجن على الإنس
109	حكمة تقديم الإنس على الجن
114	دلالة حرف العطف الواو
115	الفصل الخامس: تفسير الآية السابعة والخمسون من سورة الذاريات
120	التعبير الجامع المانع
120	إثبات صفة الإرادة لله تعالى
121	هذا هو غَنَاءُ ربك!
123	عموم الرزق
124	ذكر الخاص بعد العام
125	هل يطلق الرزق على ما نفع فقط؟
130	دلالة التعبير بصيغة الأفراد
131	دلالة النفي مرتان
132	دلالة التعبير بميم الجميع

133	ولماذا النفي بأداة النفي (لا) ؟
133	دلالة التقلب بين الضمائر!
134	هل الله تعالى يأكل؟!
136	الفصل السادس: تفسير الآية الثامنة والخمسون من سورة الذاريات
137	استشكال وجوابه
138	المناسبة بين الآيتين
139	قراءتان
141	دلالة الضمير المنفصل ﴿ هُوَ ﴾
142	خمسة أسماء حسنى!
143	من بلاغة البيان
146	رحمة ربنا
148	الْمَتَّيْنُ
149	كثرة المساس تُذهب الإحساس!
153	الفصل السابع: تفسير الآية التاسعة والخمسون من سورة الذاريات
153	بين يدي الآية
156	شؤم الظلم
159	من بلاغة الحذف
161	لفتة قرآنية مجيدة!
162	مِثْلُ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ
163	تاريخ طويل نكد
164	استدعاء لازم
165	الفصل الثامن: تفسير الآية الستون من سورة الذاريات

165	بين يدي الآية
180	مناسبة بين سورة الذاريات وسورتي المطففين والهمزة!
183	بلاغة قرآنية
185	بلاغة أخرى
186	لماذا استحقاق العذاب؟
188	التنمية البشرية في القرآن الكريم
189	صحيفة الحالة الجنائية
189	العلاقة بين بدء سورة الذاريات وختمها
191	الخاتمة
195	فهرس المحتويات